

# تَفْسِيرُ الْمُرْآغِي

تَأَلَّفَ

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المرأغي  
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية  
بكلية دارالعلوم سابقاً

---

الجزء العشرون

---

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

---

حقوق الطبع محفوظة

## الجزء العشرون

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ  
إِنَّهُمْ أَفْسَاقٌ يَنْتَهَكُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ  
الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### شرح المفردات

ينتطهرون : أى ينزهون أنفسهم ويتباعدون عما نفعله ويزعمون أنه من  
القاذورات ، قدّرنا : أى قضينا وحكّمنا ، الغابرين : أى الباقين فى العذاب .

### المعنى الجملى

سبق أن بينّا أن الذين قسموا القرآن إلى أجزاء الثلاثين لاحظوا المدّ اللفظى  
للحروف والكلمات والآيات ، ولم ينظروا إلى ارتباط المعانى بعضها ببعض ، ومن ثم  
ترى هنا أن الجزء قد انتهى قبل تمام قصة لوط وبداى الجزء العشرون بتمام هذه  
القصة ، وقد بين فيها أن النصّح لم يُجِدْهم شيئاً وعقدوا العزم على استعمال القوة

في إخراجهم من بين ظهرانيهم ، ولم يكن لهم حجة على المعارضة إلا أن لوطا وقومه لا يريدون أن يشاركهم فيما يفعلون تباعدا من الأرجاس ، وتلك مقالة قالوها على سبيل الاستهزاء بهم ، وقد نسوا أن هناك قوة أشد من قوتهم هي لهم بالمرصاد وأنها تهمهم ولا تهمهم ، فلما حان حينهم جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون وأهلك الله القوم الظالمين ، ونصر الحق وأزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

### الإيضاح

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم) أى فلم يكن جوابهم للوط إذ نهاهم عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيان الذكور إلا قيل بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا وأهله من قريبتنا ، وقد عدوا سكناه بينهم منة ومكرمة عليه إذ قالوا : من قريبتكم .

ثم عللوا هذا الإخراج بقولهم استهزاء بهم :

(إنهم أناس يتطهرون) أى إنهم يتخرجون من فعل ما تفعلون ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لجواركم في بلدكم .

ولما وصلوا إلى هذا الحد من قبح الأفعال والأقوال دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، وإلى هذا أشار بقوله :

(فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أى فأهلكناهم وأنجيننا لوطا وأهله إلا امرأته جعلناها بتقديرنا وحكمتنا من الباقيين في العذاب ، لأنها كانت على طريقتهم راضية ببيع أفعالهم وكانت ترشد قومها إلى ضيغان لوط ليأتوا إليهم ، لأنها كانت تفعل الفواحش تكريما لنبي الله صلى الله عليه وسلم ، لا كرامة لها .

ثم بين ما أهلكوا به فقال :

(وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) أى وأمطرنا عليهم مطرا غير ماعهد



من نوعه ، فقد كان حجارة من سجيل ، فبئس ذلك المطر مطر الذين أنذرهم الله عقابه على معصيتهم إياه ، وخوفهم بأسه بإرسال الرسول إليهم .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَمْعَ اللَّهُ بِنِ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَمْعَ اللَّهُ بِنِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَمْعَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ يَمْعَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَمْعَ اللَّهُ قُلُ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) .

### شرح المفردات

العباد المصطفون : هم الأنبياء عليهم السلام ، الحدائق : البساتين واحدها حديقة ، والبهجة : الحسن والرونق ، يعدلون : من العدول وهو الانحراف ، قرأوا : أى مستقرا ، الخلال : واحدها خلل وهو الوسط ، رواسى : أى ثوابت أى جبالا ثوابت ، الحاجز : الفاصل بين الشيئين ، المضطر : الذى أحوجته الشدة والفتنة .

الضراعة إلى الله ، ويكشف : أى يرفع ، خلفاء : من الخلافة وهى الملك والتسلط ،  
يهديكم : أى يرشدكم ، بين يدي رحمة : أى أمام المنظر .

### المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين وذكر أخبارهم  
الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه ، وعلى ما خصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة  
بجلال أقدارهم وضدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد وبطالان الشرك  
والكفر ، وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ، ومن أعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى  
الردى ، ثم شرح صدره عليه السلام بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية  
والمعارف الربانية الفائضة من عالم القدس مقررًا بذلك قوله : « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ  
مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » - أردف هذا بأمره عليه السلام بأن يحمده تعالى على تلك  
النعم ويسلم على الأنبياء كافة عرفانا لفضلهم وأداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين  
وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرد  
بالحق والتقدير ووجوب عبادته وحده ، وأنه لا ينبغى عبادة شئ سواه من  
الأصنام والأوثان .

### الإيضاح

( قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ) أمر الله رسوله أن يحمده شكرا  
له على نعمه التى لا تعد ولا تحصى ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم لرسالته ،  
وهم أنبيأؤه السكرام ورسله الأخيار .  
ومن تلك النعم النجاة والنصر والتأييد لأوليائه ، وحلول الخزي والنكال  
والقهر بأعدائه .

ونحو الآية قوله : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى  
الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وفي هذا تعليم حسن ، وأدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكورين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقي إلى السامعين ، والإصغاء إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كبرا عن كابر : هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة ، وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن .

ثم شرع يوضح للشركيين ويتهم بهم وينبهم إلى ضلالهم وجهلهم ، إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار فقال :

( الله خير أم ما يشركون ؟ ) أى الله الذى ذكرت لكم شئونه العظيمة خير أم الذى تشركون به من الأصنام ، وفى ذلك ما لا يخفى من تسفيه آرائهم وتقييم معتقدهم وإلزامهم الحجة ، إذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يوازن بينها وبين ما هو محض الخير ، فهو من وادى ما حكاه سيئويه : تقول العرب : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وكما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أنهم جوه ولست له بكفء فشر كما لخير كما الفداء

وجاء فى بعض الآثار « إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » .

ثم انتقل من التوبيخ تعريضا إلى التبيكيت تصریحا فقال :

( أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به خدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ) أى أعبادة ما تعبدون أيها المشركون من أوثانكم التي لا تنفع ولا تضر ، أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفائها وجعل فيها كواكب نيرة ونجومها زاهرة ، وأفلاكا دائرة ؛ وخلق الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا وسهولا وأوعارا ، وفيافي وقفارا ، وزروعا وأشجارا ، وحيوانات مختلفة

الأصناف والأشكال والألوان ، وأنزل لكم من السماء مطرا جعله رزقا للعباد فأثبت به بساتين مونة تسر الناظرين ؟ ولولاه ما نبت الشجر ولا ظهر الثمر .  
ونحو الآية قوله : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ » وقوله : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ » .  
ثم زاد في التوبيخ فنفى الألوهية عما يشركون بعد تبكيته على نفي الخيرية عنها فقال :

( أإله مع الله ؟ ) أى إله غيره يقرون به ويجعلونه شريكا له في العبادة ؟  
مع تفرد جل شأنه بالخلق والتكوين كما قال : « وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ » .  
ثم انتقل من تبكيتهم إلى بيان سوء حالهم فقال :

( بل هم قوم يعدلون ) أى بل هؤلاء المشركون قوم دأبهم العدول عن طريق الحق والانحراف عن جادة الاستقامة في جميع شؤونهم ، ومن ثم يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح وهو التوحيد ويعكفون على الضلال المبين وهو الإشراك .

وفي معنى الآية قوله : « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ » وقوله : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »  
وقوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ » .  
ثم أعاد التوبيخ بوجه آخر فقال :

( أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ) أى أعبادة ما تشركون أيها الناس بربكم مع أنه لا يضر ولا ينفع خير ، أَمْ عبادة الذى جعل الأرض مستقرا للإنسان والدواب ، وجعل فى أوسطها أنهارا تلتفون بها فى شربكم وسقى أنعامكم ومزارعكم ، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لا تميد بكم ،

وحتى تنتفعوا بما فيها من العادن المختلفة ، وقد أنزل الماء على شواهقها وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزا يمنعهما من الاختلاط حتى لا يفسد هذا بذلك ، والحكمة تقضى ببقاء كل منهما على حاله ، فالعذبة : لسقى الناس والحيوان والنبات والثمار ، والملحة : تكون مصادر للأمطار التي تجري منها ، وهى وسيلة لإصلاح الهواء .

( أإله مع الله ؟ ) فى إبداع هذه الكائنات وإيجاد هذه الموجودات .

( بل أكثرهم لا يعلمون ) أى بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله وما عليهم من ضرر فى إشراكهم غيره به ، وما لهم من نفع فى إفرادهم إياه بالآلوهة وإخلاصهم العبادة له وبراءتهم من كل معبود سواه .

ثم زادهم توبيخا من وجه ثالث فقال :

( أم من يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ) أى أم ما تشركون بالله خير أم الذى يحيب المكروب الذى أحوجه المرض أو الفقر أو النازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إليه إذا دعاه وقت اضطرابه ، ويرفع عن الإنسان ما يسوءه من فقر أو مرض ، ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم فى الأرض فيورثكم إياها بالسكنى والتصرف فيها ؟ .

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أسألك بالله أن تدعولى فأنا مضطر ، قال : إذا فأسأله فإنه يحيب المضطر إذا دعاه ، وقال الشاعر :

وإني لأدعو الله والأمر ضيق على فما ينفك أن يتفرجا

ورب أخ سددت عليه وجوهه أصاب لها لما دعا الله نخرجا

وعن أبى بكره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : « اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكن لى نفسى طرفة عين ، وأصلى لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » وجاء فى الخبر : « ثلاث دعوات مستجابات لاشك فىهن ، دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده » .

وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن :  
« واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب » .

(إله مع الله ؟) الذى هذه شئونه وتلك نعمه .  
ثم بين أن من طبيعة الإنسان ألا يتذكر نعم الله عليه إلا قليلا ، وإلى ذلك أشار بقوله :

( قليلا ما تذكر ) أى قليلا ما تتذكر نعم الله عليكم وأياديه عندكم ، ومن ثم أشركتم به غيره فى العبادة .

ثم زادهم تأنيبا وتهكما من ناحية أخرى فقال :

( أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمة )  
أى أم ما تشركون بالله خير ، أم من يرشدكم فى ظلمات البر والبحر إذا أظلمت عليكم  
السبل فضللتم الطريق - بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال : « وَعَلَامَاتِ  
وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » وقال : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا  
فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ » ومن يرسل الرياح أمام الغيث الذى يحيى موات الأرض .  
ولما انتصحت الأدلة ولم يبق لأحد فى ذلك عذر ولا علة قال :

( إله مع الله ؟ ) فعل هذا ؟

ثم أكد هذا النفي وقرره بقوله :

( تعالى الله عما يشركون ) أى تنزه ربنا المنفرد بالألوهية ، ومن له صفات السكال  
والجلال ، ومن تخضع له جميع المخلوقات ، وتذل القهرة وجبروته - عن شرككم الذى  
تشركونه به وعبادتكم معه ما تعبدون .

ثم أضاف إلى ذلك برهانا آخر لعلمهم يرتدعون عن غيهم فقال :

( أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ) أى أم ما تشركون  
خير أم الذى ينشئ الخلق بادئ بدء وينتدعه من غير أصل سلف ، ثم يفنيه إذا

شاء ، ثم يعيده إذا أراد كهينته قبل أن يفنيه ، وهو الذى يرزقكم من السماء والأرض  
فينزل من الأولى غيثا وينبت من الثانية نباتا لأقواتكم وأقوات أنعامكم .  
وهم وإن كانوا ينكرون الإعادة والبعث لم يلتفت إلى ذلك الإنكار اظهور أدلته  
فلم يبق لهم عذر فيه .

وبعد أن وضح الدليل على نفي الشريك بكتهم وقال :

( أإله مع الله ؟ ) يفعل هذا حتى يجعل شريكا له .

وبعد أن ذكر البرهان تلوا البرهان وأوضح الحق حتى صار كفلق الصبح زاد  
فى التهم بهم والإنكار عليهم والتسفيه لعقولهم ، فأمر رسوله أن يطلب منهم البرهان  
على صدق ما يدعون . فقال :

( قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ) أى قل لهم أيها الرسول : هاتوا الدليل  
على وجود ما تزعمون من الشركاء إن كان ما تقولونه حقا وصدقا .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ  
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا  
بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) .

### شرح المفردات

أَيَّانَ : أى متى ، يبعثون : أى يقومون من القبور للحساب والجزاء ، ادَّارَكَ :  
أى تدارك وتتابع والمراد التتابع فى الاضمحلال والبقاء ، فى شك : أى فى حيرة  
عظيمة ، عمون : واحد هم عم وهو أعمى القلب والبصيرة .

### المعنى الجملى

بعد أن أثبت تفرد بالألوهية ، لاختصاصه بالقدرة التامة والرحمة العامة - أعقب  
هذا بذكر لوازمها وهو اختصاصه بعلم الغيب ، تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من أمر البعث .

( قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ) يقول سبحانه آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلم جميع خلقه أنه لا يعلم الغيب أحد من أهل السموات والأرض ، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ » الآية . وقال : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » الآية - والمراد بالغيب الشئون التى تتعلق بأمور الآخرة وأحوالها ، وشئون الدنيا التى لاتقع تحت حسنا وليست فى مقدورنا .

وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : من زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون فى غد فقد أعظم القرية على الله ، لأن الله يقول : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » . ثم ذكر بعض ذلك الغيب فقال :

( وما يشعرون أيان يبعثون ) أى وما يدرك من فى السموات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة كما قال : « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً » أى ثقل عليهما على أهل السموات والأرض فلا يشعرون بها ، بل تأتيتهم فجأة . ثم أكد جهلهم بهذا اليوم بقوله :

( بل ادّارك علمهم فى الآخرة ) أى بل انتهى علمهم وعجزهم عن معرفة وقتها فلم يكن لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسباب العلم ، وليس المراد أنه كان لهم علم بوقتها على الحقيقة فاتت في شيئا فشيئا ، بل المراد أن أسباب العلم ومبادئه من الدلائل العقلية والنقلية ضعفت فى اعتبارهم شيئا فشيئا كلما تأملوا فيها حتى لم يعد لها قيمة وكأن لم تكن .

ثم انتقل من وصفهم بالجهل بميقاتها إلى الحيرة فى الآخرة نفسها ، أتكون أو لا تكون ؟ فقال :



( بل هم في شك منها ) أى بل هم في حيرة عظيمة من تحققها ووجودها ،  
أَكْثَنَ هِىَ أَمْ غَيْرَ كَائِنَةٍ ، كَمَنْ يَحَارُ فِي الْأَمْرِ لَا يَجِدُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ، فَضْلًا عَنْ تَصْدِيقِ  
مَا سَيُحْدِثُ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ أَخْبَرَتْ عَنْهَا الْكُتُبُ الْمَعَاوِيَةُ كَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالنَّعِيمِ  
وَالْعَذَابِ وَالْأَهْوَالِ الَّتِي لَا يَدْرِكُ كُنْهَهَا الْعَقْلُ .

ثُمَّ ارْتَقَى مِنْ وَصْفِهِمْ بِالشَّكِّ فِي أَمْرِهَا إِلَى وَصْفِهِمْ بِالْعَمَى وَاجْتِلَالِ الْبَصِيرَةِ بِمَحِثِ  
لَا يَدْرِكُونَ الدَّلَائِلَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ فَقَالَ :

( بل هم منها عَمُونَ ) أى بل هم في عمية وجهل عظيم من أمرها ، وَعَنْ كُلِّ  
مَا يُوصلُهُمْ إِلَى الْحَقِّ فِي شَأْنِهَا ، وَالنَّظَرِ فِي دَلَالِهَا .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَوْ إِنَّا كُنَّا خُرَجُونَ (٦٧)  
لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)  
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)  
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى  
هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ  
بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ  
وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ  
مُبِينٍ (٧٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف جهلهم بالآخرة وعماهم عنها - أردف ذلك ببيان  
ذلك وإيضاحه بأنهم ينكرون الإخراج من القبور بعد أن صاروا تراباً ، وأنهم قالوا

تلك مقالة سمعتها من قبل ، وما هي إلا أسطورة من أساطير الأولين وخرافاتهم ؛ ثم أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى صدق هذا السير في الأرض حتى يزوا عاقبة المجرمين بسبب تكذيبهم للرسول فيما دعواهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم صبر سبحانه رسوله على ما يناله من أذى المشركين ، ووعد بالنعص عليهم ، ثم ذكر أنهم مكذبون بالساعة وغيرها من العذاب والجزاء الموعود ، وأنهم يسألون عن ذلك سخريّة واستهزاء ، وأجابهم بأن العذاب سينزل بهم قريبا ، ثم ذكر فضله على عباده بأنه لا يعجل لهم العذاب مع استحقاقهم إياه لا يشكروه على ذلك ، ثم بين أنه تعالى عليم بالسر والنجوى ، وأنه مطلع على ما تكنه القلوب ، وأنه ما من شيء مهمما خفي فالله عليم به وهو مثبت عنده في كتاب مبين .

### الإيضاح

( وقال الذين كفروا أنذا كنا ترابا وآباؤنا أنذا نخرجون ) أى وقال الكافرون بالله المكذبون لرسوله ، أننا نخرجون من قبورنا أحياء كهيئتنا من بعد مماتنا وبعد أن بلىنا وكنا فيها ترابا ؟ .

وهذا منهم استبعاد لإعادة الأجسام بعد صيرورتها عظاما ورفاتا .

ثم ذكروا شبهتهم على استبعاده في زعمهم فقال :

( لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ) أى إنا ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى تحقق ذلك ولا وقوعه .

ثم أكدوا هذا الاستبعاد بقولهم :

( إن هذا إلا أساطير الأولين ) أى ما هذا الوعد إلا أسطورة مما سطره الأولون

من الأكاذيب في كتبهم من غير أن يكون لهم بينة على إمكان تحققه ووجوده .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم إلى وجه الضواب مع التهديد والوعيد فقال :

( قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ) أى قل لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الأنباء من عند ربك : سيروا في الأرض فانظروا إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين ، كيف هي ؟ ألم يخربها الله ويهلك أهلها بتكذيبهم رسلهم وردهم عليهم نصائحهم ، نفلت منهم الديار وعفت منها الرسوم والآثار ، وكان ذلك عاقبة إجرامهم ، وتلك سنة الله في كل من سلك سبيلهم في تكذيب رسوله ، وسيفعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا إلى الإنابة من كفركم وتكذيبكم رسوله .  
ثم سئل رسوله صلى الله عليه وسلم عما يناله من عمام عن السبيل الذي هدى إليه الدليل فقال :

( ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ) أى ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ، ولا يضق صدرك من مكرهم ، فإن الله ناصرهم عليهم ومظهر دينك على من خالفه في المشرق والمغرب .  
ثم أشار إلى أنهم لم يقصروا إنكارهم على الساعة ، بل كان إنكارهم لغيرها من عذاب الله أشد بقوله :

( ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ) أى ويقول مشركو قريش المكذبون بما أتيتهم به من عند ربك : متى يكون هذا العذاب الذي تعدنا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تدعون .  
ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحييهم فقال :

( قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ) أى عسى أن يلحقكم ويصل إليكم بعض ما تستعجلون حلوله من العذاب ، والمراد به ما حل بهم يوم بدر من النكال والوبال .

قال صاحب الكشاف : عسى ولعل وسوف ، في وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده ، وما لاجبال للشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ،

وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم وتوقعهم أن عدوهم لا يفوتهم ،  
وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهةهم ، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده اهـ .  
ثم بين سبحانه السبب في ترك تعجيل العذاب فقال :

(وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) أى وإن ربك  
هو المنعم المتفضل على الناس جميعا بتركه المعالجة بالعقوبة على المعصية والكفر ،  
ولكن أكثرهم لا يعرفون حق فضله عليهم . فلا يشكره إلا القليل منهم .  
ثم أبان سبحانه أنه مطلع على مافى قلوبهم فقال :

(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) يقال كذبت الشئ وأكذنته :  
إذا سترته وأخفيته ، أى إن ربك يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر كما قال :  
« سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » وقال « وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .  
وقصارى ذلك — إنه يعلم ما يخفون من عداوة الرسول ومكائدهم له وما يعلنون  
وهو محصيا عليهم ومجازيهم بذلك .

ثم ذكر أن كل ما يحصل في الوجود فهو محفوظ في اللوح المحفوظ فقال :  
(وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) أى وما من أمر مكتوم  
وسر خفي يغيب عن الناظرين في السماء أو في الأرض إلا وهو في أم الكتاب الذى  
أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من ابتداء الخلق إلى يوم القيامة ، وهو بين لمن نظر  
إليه وقرأ ما فيه مما أثبتته ربنا جلّت قدرته .

ونحوه : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ،  
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ  
يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي

يَذَرُهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور وأقام على ذلك الدليل يتلو الدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد - أردف ذلك بالكلام فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأقام الأدلة على صحتها وصدق دعواه فيما يدعى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ، لاجرم بين الله تعالى إعجازه من وجوه :

(١) إن ما فيه من القصص موافق لما فى التوراة والإنجيل مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً ولم يخاطب أحداً من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذا إلا من وحى إلهى من لدن حكيم خبير .

(٢) إن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر فى دنياهم وآخرتهم - لا يوجد له نظير فى كتاب آخر ، فلا بد أن يكون ذلك من عند الله .

(٣) إنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر وأنه من الملأ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقدر .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكماً على بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق فى هذا كاختلافهم فى أمر المسيح؛ فمن قائل هو الله ، ومن قائل هو ابن الله ،

ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب في دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ماهي منزهة عنه ، وقالوا إن النبي المبشر به في التوراة هو يوشع عليه السلام أو هو نبي آخر يأتي آخر الدهر ، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه .  
وأنه لا يحكم إلا بالعدل فقله الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لا يستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لا يعقلون ، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعي ، وأذان تسمع دعوة الداعي إلى الحق فتستجيب لها .

### الإيضاح

( إن هذا القرآن يقض على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ) أى إن هذا القرآن الذى أنزلته إليك أيها الرسول يقض على بني إسرائيل الحق فى كثير مما اختلفوا فيه ، وكان عليهم لو أنصفوا أن يتبعوه ، لكنهم لم يفعلوا وكابروا مع وضوح الحق وظهور دليله كما تفعلون أتم أيها المشركون .

ثم وصف القرآن بقوله :

( وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ) أى وإنه لهاد للمؤمنين إلى سبيل الرشاد ، ورحمة

لأن صدق به وعمل بما فيه .

وبعد أن ذكر فضله وشرفه أتبعه دليل عدله فقال :

( إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ) أى إن ربك يقضى بين

المتخلفين من بني إسرائيل بحكمه العادل ، فينتقم من المبطل منهم ويجازى الحسن بما يستحق من الجزاء ، وهو العزيز الذى لا يرد حكمه وقضاؤه ، العليم بأفعال العباد وأقوالهم ، فقضاؤه موافق لواسع علمه .

وبعد أن أثبت لنفسه العلم والحكمة والجبروت والقدرة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وحده فقال :

(فتوكل على الله) أى ففوض إلى الله جميع أمورك وثق به فيها ، فإنه كافيك كل ما أهمك ، وناصرك على أعدائك ، حتى يبلغ الكتاب أجله .  
ثم علل هذا بقوله :

(إنك على الحق المبين) أى أنت على الحق المبين وإن خالفك فيه من خالفك ممن كتب عليه الشقاء : « إِنَّ الدِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ » .

ثم أياسه من إيمان قومه وأنه لا أمل في استجابتهم لدعوته فقال :  
(إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) أى إنك لا تقدر أن تفهم الحق من طمع الله على قلوبهم فأماها ، ولا أن تسمعه من أصمهم عن سماعه ولا سيما أنهم مع ذلك معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ، وإنما شبههم بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم ، وشبههم بالصم البكم ليبين أنه لا أمل في استجابتهم للدعوة ، لأن الأصم الأبكم لا يسمع الداعى بحال .

وظاهر نفي سماع الموتى العموم ، فلا يخص منه إلا ما ورد بدليل كما ثبت في الصحيح «أنه صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى في قليب (بئر) بدر فقبل له : يا رسول الله إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » . أخرجه مسلم .

وكما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه ، وما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا .

وقصارى ما سلف — إنه تعالى أمره بالتوكل عليه والإعراض عما سواه ، لأنه على الحق المبين ومن سواه على الباطل ، ولأنه تعالى مؤيده وناصره ، ولأنه لا مطنع في مشايعة المشركين ومعاصدتهم ، لأنهم كالموتى وكالصم البكم ، فلا أمل في استجابتهم للدعوة ، ولا في قبولهم للحق .

ثم أكد ما سلف وقطع أطماعه في إيمانهم على أنهم وجهه فقال :

( وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ) أى أنت أيها الرسول لا تستطيع أن تصرف العمى عن ضلالتهم وتهديهم إلى الطريق السوى ، والمراد أنك لا تهدي من أعماهم الله عن الهدى والرشاد فجعل على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما جئت به نظرا يوصلهم إلى معرفة الحق وسلوك سبيله .

ثم زاد ذلك توكيدا فقال :

( إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ) أى إنما يستجيب لك من هو نافذ البصيرة خاضع لربه متبتل إليه بحجب لدعوة رسله .

والخلاصة — إنك لا تقدر أن تفهم الحق وتسمعه إلا من يصدقون بأدلتنا وحججنا ، فإنهم هم الذين يسمعون منك ما تقول ويتدبرونه ويعملون به ، إذ هم ينقادون للحق في كل حين .

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَاتَمْنُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨٨)



مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ  
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ (٩٠)

### شرح المفردات

وقع : حدث وحصل ، والمراد من القول : ما دل من الآيات على مجيء الساعة ،  
تكلمهم : أى تنبئهم وتخبرهم ، نحشر : أى نجعل ، فوجا : أى جماعة من الرؤساء ،  
يوزعون : أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ  
والمنافسة ، ولم تحيطوا بها علما : أى لم تدركوا حقيقة كتبها ، ألم يروا : أى ألم يعلموا ،  
ليسكنوا فيه أى ليستريحوا فيه ويهدوا ، مبصرا : أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة  
طرق القلب في أمور معاشهم ، الصور : البوق ، داخرين : أى أذلاء صاغرين ،  
جامدة : أى ثابتة في أماكنها ، أتقن : أى أحكم ، يقال رجل تقن ( بكسر التاء )  
أى حاذق بالأشياء ، الحسنه : الإيمان وعمل الصالحات ، والسئنة : الإشرار بالله  
والمعاصي ، كبت : أى ألقيت منكوسة .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وأبان بعدئذ إمكان  
البعث والحشر والنشر ، ثم فصل القول في إعجاز القرآن ، ونبه بذلك إلى إثبات نبوة  
محمد صلى الله عليه وسلم - أردف ذلك بذكر مقدمات القيامة وما يحدث من الأحوال  
حين قيامها ، فذكر خروج دابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم  
وأنه حينئذ ينفخ في الصور فيفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ،  
وأن الجبال تجري وتمرر السحاب ، ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجمالهم

قسمين : مطيعين يعملون الحسنات فيثابون عليها بما هو خير منها ويؤمنون الفرع والخوف ساعتئذ ، وعاصين يكتبون في النار على وجوههم ويقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .

## الإيضاح

( وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ) يخبر سبحانه بأنه حين فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق قرب مجيء الساعة - يخرج الله دابة من الأرض تحدث الناس بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله الدالة على مجيء الساعة ومقدماتها .

والمقصود من هذا التحديث : التشنيع عليهم بهذه المقالة ، وفي التعبير بكلمة ( الناس ) الإشارة إلى كثرتهم وأنهم جم غفير منهم .

وما جاء في وصف الدابة والمبالغة في طولها وعرضها وزمان خروجها ومكانه - مما لا يركن إليه ، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم .

ثم بين سبحانه حال المكذبين حين مجيء الساعة بعد بيان بعض مبادئها وأشرطها فقال :

( ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوا قال أ كذبت بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ؟ ) أي ويوم تجتمع من كل أهل قرن جماعة كثيرة ممن كذبوا بآياتنا ودلائلنا ونحسب أولهم على آخرهم ليجمعوا في موقف التوبيخ والإهانة ، حتى إذا جاءوا ووقفوا بين يدي الله في مقام السؤال والجواب ، ومناقشة الحساب ، قال لهم ربهم مؤثراً وموئخاً لهم على تكذيبهم أ كذبت بآياتي الناطقة بلكم يومكم هذا بآدي الرأي غير ناظرين فيها نظراً يوصلكم إلى العلم بحقيقتها ، أم ماذا كنتم تعملون فيها من تصديق وتكذيب ؟

( ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ) أى وحل بأولئك المكذبين بآيات الله — السخط والغضب بتكذيبهم بها ، فهم لا ينطقون بحجة يدعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم من العذاب الأليم .  
ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .  
وبعد أن خوفهم من أهوال يوم القيامة ذكر الدليل على التوحيد والحشر والنبوة فقال :

( ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ) أى ألم يروا هؤلاء المكذبون بآياتنا تضريفنا الليل والنهار ومخالفتنا بينهم يجعل ذاك سكنا لهم يسكنون فيه ، ويهدون راحة لأبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارا ، وجعل هذا مضيقا يبصرون فيه الأشياء ويعاينونها ، فيتقلبون فيه لمعايشهم — فيتفكرون في ذلك ويتدبرون ويعلمون أن مصرف ذلك كذلك ، هو الإله الذى لا يعجزه شيء ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء ، وإحياء الأموات بعد الممات .

وفى ذلك أيضا دليل على النبوة ، لأنه كما يقرب الليل والنهار لمنافع المكلفين فى بعثة الأنبياء منافع عظيمة للناس فى دنياهم ودينهم ، فما المانع إذا من بعثهم إليهم ؟ بل الحاجة إلى ذلك ملّة .

( إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ) أى إن فيما ذكر لدلالة على قدرته على البعث بعد الموت ، وعلى توحيده لمن آمن به وصدق برسله ، فإن من تأمل فى تعاقبهما واختلافهما على وجوه بدیعة مبنية على حكم تحار فى فهمها العقول ، ولا يحيط بعلمها إلا الله ، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل الحالكة المشابهة للموت ، بضياء النهار المضاهى للحياة ، وعاین فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة — قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وجزم بأن الله جعل هذا دليلا على تحققه ، وأن الآيات الناطقة به حق وأنها من عند الله .

وبعد أن ذكر الحشر الخاص وأقام الدليل عليه — ذكر الحشر العام فقال :  
( وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ )  
أى واذكر أيها الرسول لهم هول يوم النفخ في الصور ، إذ يفزع من في السموات  
ومن في الأرض ، لما يعتريهم من الرعب حين البعث والنشور ، بمشاهدة الأهوال  
الخارقة للعادة في الأنفس والآفاق ، إلا من ثبت الله قلبه .

ويرى أكثر أهل العلم أن هناك نفختين ، نفخة الفزع المذكورة في هذه الآية  
وهي نفخة الصعق المذكورة في قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » لأن كلا الأمرين الفزع والخوف ، والصعق وهو  
الموت يحصلان بها ، ونفخة البعث المذكورة في قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ  
فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » .

( وكل أتوه داخرين ) أى وكل هؤلاء الفزعين المبعوثين ، حين النفخة  
تحضرون الموقف بين يدي رب العزة للسؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، أذلاء  
صاغرين ، لا يتخلف أحد عن أمره كما قال : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » .  
وقال : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » وقال :  
« يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .  
ولما ذكر دخولهم أتبعه بدخول ما هو أعظم منهم فقال :

( وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ ) أى وترى الجبال كأنها  
نايبة باقية على ما كانت عليه وهى تزول عن أماكنها وتسير حيثما كمر السحاب ،  
لأن الأجرام الكبار إذا تحركت فى سمت واحد لا تكاد تبين حركتها .  
ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » وقوله :  
« وَيَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » وقوله : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ  
فَكَانَتْ سَرَابًا » وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، فيبدل الله الأرض  
غير الأرض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقرها ليشاهدها أهل الحشر ، وهى وإن

دكت عند النفخة الأولى ، فتسيرها إنما يكون لدى النفخة الثانية كما نطق به قوله :  
« قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » وقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » .

ثم علل إمكان ذلك وسرعة حصوله بقوله :

( صنع الله الذى أتقن كل شئ ) أى ذلك الصنع العظيم صنع الله الذى أحكم كل شئ وأودع فيه من الحكمة ما أودع .

ثم علل ما تقدم من النفخ فى الصور والقيام للحساب ومجازاة العباد على أعمالهم بقوله :

( إنه خير بما تعملون ) أى إنه تعالى ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وهو مجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

ثم بين حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال :

( من جاء بالحسنة فله خير منها ) أى من آمن بالله وعمل صالحا فله على ذلك جزيل الثواب من عند ربه فى جنات النعيم ، ويؤمنه من الفرع الأكبر يوم القيامة كما جاء فى الآية : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ » وقال : « أَفَمَنْ يُبْلَغُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » وقال : « وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ » وقد صح تفسير الحسنة هنا بشهادة أن لا إله إلا الله على ما رواه ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن .

( ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ) أى ومن أشركوا بالله وعملوا السيئات يكونون على وجوههم فى جهنم ويطرحون فيها ، ونحو الآية قوله : « فَكُتِبَ بُرًا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ فقال :

( هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ ) أى ويقال لهم : هل هذا إلا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا مما يسخط ربكم ويفضبه منكم من شرك به ومعصية له .

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ  
وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى  
فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

### شرح المفردات

البلدة : هى مكة ، أتلو القرآن : أى أواظب على تلاوته ، من المنذرين : أى  
الخوفاين قومهم من عذاب الله .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المبدأ والمعاد ، وفصل أحوال القيامة - أمر رسوله  
أن يقول لهؤلاء المشركين هذه المقالة تنبيها لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد  
عليه ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته ،  
غير مهبال بهم ضلوا أو رشدوا ، صلحوا أو فسدوا ، إثارة لهمهمهم بالطف وجهه إلى  
تدارك أحوالهم وتحصيل ما ينفعهم ، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التى  
تكفى فى إرشادهم وتشفى عللهم وأمراضهم .

### الإيضاح

( إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ) أى قل لهم أيها الرسول  
إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ مَكَّةَ التى حرم على خلقه أن يسفكوا فيها دما حراما  
أو يظلموا فيها أحدا ، وخصها بالذكر لأن أول بيت للعبادة كان فيها - دون الأوثان  
التي تعبدونها كما قال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ . وَآمَنَهُمْ  
مِنْ خَوْفٍ » .

وفى هذا تأنيب لهم على ما يفعلون من أنواع الفجور وفطيع المنكرات ، فإنهم قد تركوا عبادة رب مكة ونصبوا الأوثان فيها وعكفوا على عبادتها .

(وله كل شئ ) خلقا وملكا وتصرفا دون أن يشركه فى ذلك أحد .

( وأمرت أن أكون من المسلمين ) أى وأمرنى ربى أن أسلم وجهى له ، فأكون من الموحدين الخالصين المتقادين لأمره المحبتين له فى الطاعة .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

( وأن أتلو القرآن ) آناء الليل وأطراف النهار ، لتتكشف لى أسرارهِ الخزونة فى تضاعيفه ، وأستطلع أدلة السكون المتفرقة فى آيه ، فأعرف حقائق الحياة ، وسر الوجود ، ويفاض على من فيوضاته الإلهية ، وأسراره القدسية ماشاء الله أن يفيض . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قام ليلة يصلى فقرأ قوله تعالى : « إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ » فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر ، ويتجلى له من مقاصدها ما تسو به نفسه إلى الملا الأعلى حتى طلع الفجر .

ونحو الآية قوله : « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » .

( فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ) أى فمن اتبعنى واهتدى بهدى وآمن بى وبما جئت به فقد سلك سبيل الرشاد وآمن نعمة ربه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

(ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين) أى ومن جار عن قصد السبيل بتكذيبه بى وبما جئت به من عند الله ، فقل إنما أنا من النذرين فحسب ، وقد خرجت من عهدة الإنذار ، وليس على من وبال ضلالكم من شئ ، فإن قبلتم واتهمتم عما يكرهه ربكم من الشرك ، فحظوظ أنفسكم تصيبون ، وإن كذبتهم وأعرضتم عما أدعوك إليه فعلى أنفسكم تجنون ، وقد بلغتكم ما أمرت بإبلاغه إياكم .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ثم أمره بترغيب قومه وترهيبهم فقال :

(وقل الحمد لله ) أى وقل الحمد لله على ما أفاض على من نعمائه التى من أجلها  
نعمة النبوة المستتبعة لضروب من النعم الدينية والدنيوية ، ووفقنى لتحمل أعبائها  
وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين الساطعة ، ووفقنى لاتباع الحق الذى أتم  
عنه عمون .

(سيركم آياته فتعرفونها ) أى سيركم ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون بها  
حقيقة نصحى ويستبين لكم صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد حين لا تجدى المعرفة ،  
ولا تفيد التبصرة شيئاً .

ونحو الآية قوله : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ  
أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ثم ذيل هذا بتقرير ما قبله من الوعد والوعيد بقوله :

( وما ربك بغافل عما تعملون ) أى وما ربك بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون  
ولكنه مؤخر عذابهم إلى أجل هم بالغوه ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ،  
فلا يحزنك تكذيبهم فإنى لهم بالمرصاد ، وأيقن بأنى ناصرك وخاذل عدوك ، ومذيقهم  
الذل والهوان .

روى أن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مَغْفِلاً شيئاً لأغفل ما تُعْفَى الرياح  
من أثر قدمي ابن آدم . وكان الإمام أحمد كثيراً ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عفى رقيب  
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب  
والحمد لله وصلاته على النبي الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين .



## خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

من حكم وأحكام وقصص

- (١) وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين .
- (٢) قصص موسى عليه السلام .
- (٣) قصص سليمان عليه السلام .
- (٤) قصص ثمود وقصص قوم لوط .
- (٥) النعي على المشركين في عبادة الأصنام والأوثان وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى .
- (٦) إنكار المشركين للبعث والنشور وقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين .
- (٧) علم الله بما في الصدور .
- (٨) حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو إسرائيل .
- (٩) قطع الأطماع في إيمان المشركين وتشبيههم بالعمى الصم .
- (١٠) أشرار الساعة وخروج الدابة من الأرض وحشر فوج من كل أمة وتسيير الجبال .
- (١١) الجزاء على العمل خيرا كان أو شرا .
- (١٢) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : إنه إنما أمر بعبادة رب مكة ، لا بعبادة الأصنام والأوثان .
- (١٣) أمره بحمد الله والثناء عليه وطلبه تلاوة القرآن .
- (١٤) إنه سبحانه سيرى المشركين آياته فيعرفونها حق المعرفة حين لا يفيدهم ذلك شيئا .

## سورة القصص

هي مكية كلها على ما روى الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة ، وقال مقاتل :  
إلا من آية ٥٢ إلى ٥٥ فمدنية ، وإلا آية ٨٥ فقد نزلت بالجحفة أثناء الهجرة  
إلى المدينة .

وآياتها ثمان وثمانون ، نزلت بعد النمل .

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

(١) إنه سبحانه بسط في هذه السورة ما أوجز في السورتين قبلها من قصص  
موسى عليه السلام وفصل ما أجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء  
بنى إسرائيل الذي أوجب إلقاء موسى حين ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح ثم  
ذكر قتله القبطي ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بينته ، ثم  
مناجاته لربه .

(٢) إنه أجمل في السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة ،  
وبسطه هنا أتم البسط .

(٣) إنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله  
هنا في قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ » الآيات .

(٤) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك  
هنا ، وهكذا من المناسبات التي تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ  
مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ  
وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

### شرح المفردات

تتلو عليك : أى نزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيعة : أى فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ، ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا ، يستضعف : أى يجعلهم ضعفاء مقهورين ، والطائفة هنا هم بنو إسرائيل ، ونمن : أى نتفضل ، والأئمة : واحد هم إمام وهم من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، ويقال مكّن له إذا جعل له مكانا موطأ ممهدا يجلس عليه ، والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها ، وهامان وزير فرعون ، يحذرون : أى يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود من بنى إسرائيل .

### الإيضاح

(طسم) تقدم أن قلنا إن أجل الآراء فى هذه الحروف المقطعة أنها حروف استعملت أول الكلام للتنبيه ، كما استعملت (يا) فى النداء و (ألا) ونحوها للتنبيه ، وينطق بها بأسمائها هكذا (طاسين ميم) .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه آيات الكتاب الذى أنزلته إليك أيها الرسول واضحاً جليلاً كاشفاً لأمر الدين وأخبار الأولين ، لم تقوله ولم تتخرصه كما زعم المشركون المنكرون له ولرسالة من أوحى إليه . ثم ذكر ما هو كالدليل على أنه وحى يوحى وليس هو من وضع البشر فقال :

( تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ) أى تتلو عليك بعض أخبار موسى ومحاجته لفرعون وغلبته إياه بالحجة ، وإخبار فرعون وجبروته وطغيانه وكيف قابل الحق بالباطل ولم يُجِدْ معه البراهين الساطعة والمعجزات الواضحة ، فأخذناه أخذ عزيز مقتدر فكانت عاقبته الدمار والوبال وأُغْرِقَ ومن معه من جنده أجمعون ، تتلوها عليك تلاوة على وجه الحق كأنك شاهد حوادثها ، مبصر وقائمه ، تصف ماترى وتبصر عيانا ، لقوم يصدقون بك وبكتابك لتطمئن به قلوبهم وتُكَلِّجَ به صدورهم ويعلموا أنه الحق من ربهم وأن سنته فيمن خالفك وعاداك من المشركين هي سنته فيمن عادى موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل ، وأن النصر دائما للمتقين ويخزي الله المكذبين : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ » .

وإنما جعل التلاوة للمؤمنين وهو يتلى على الناس أجمعين ، لبيان أنه لا يعتبر بها إلا من كان له قلب واع وأذن سامعة تذكروا وتتعضى بآياته ، أما من أعرض عنه ، وأبى واستكبر ، وقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلا تفيده الآيات والنذر ، ولا يلقى له بالا ، ولا يعي ما فيه من حكمة ، ولا ما يسوقه من عبرة ، فهو على نحو ما حكى الله عنهم : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » .  
ثم فصل هذا الجمل ووضحه بقوله :

( إن فرعون علا في الأرض ) أى إن فرعون تجبر في مصر وقهر أهلها وجاوز الحدود في الظلم والعدوان وساس البلاد سياسة غاشمة .  
وعما مكن له في ذلك ما يئنه الله سبحانه بقوله :

( وجعل أهلها شيعا ) أى وفرقهم فرقا مختلفة ، وأحزابا متعددة ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء ، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجمعوا على رأى ، ويشغل بعضهم بالكيد لبعض ، وبذا يلين له قيادهم ، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم ، وتلك هي سياسة الدول الكبرى في العصر الحاضر ، وذلك هو دستورها في حكمها

لمستعمراتها ، وقد نقش حکامها فى صدورهم واتجاههم فى سياستهم « فرق تسد »  
وطالما أجدت معهم فى سياسة تلك البلاد ، وهى أعظم نفعاً فى البلاد التى يعمرها الجبل  
ويطغى على أهلها حب الظهور ويرضون بالنفأية والقشور .

رُحِّمَكَ اللَّهُمَّ رَحْمَكَ ، بسطت لعبادك سنتك فى الأكوان ، وأبنت لهم طبيعة  
الإنسان ، وأنه محب للظلم والعدوان .

والظلم من شيم النفوس فإن تجدد ذا عفة فلعلة لا يظلم  
( يستضعف طائفة منهم ) أى يحملهم أذلاء مهوورين ، يسومهم الخسف ،  
ويعاملهم بالعسف ، وهم بنو إسرائيل .

ثم فسر هذا الاستضعاف بقوله :

( يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ) أى يذبح أبناءهم حين الولادة ، وقد وكل  
بذلك عيوناً تتجسس ، فكلما ولدت امرأة منهم ذكراً ذبحوه ، ويستبقى إناثهم ،  
لأنه كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يترسون مختلف الصناعات ، وبأيديهم  
زمام المال ، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة وغلبوا المصريين عليها ،  
والقلب الاقتصادى فى بلد ما أشد وقعا وأعظم أثراً فى أهلها من القلب الاستعمارى ،  
ومن ثم لم يشأ أن يقتل النساء .

روى السُّدِّى أن فرعون رأى فى منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى  
اشتعلت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركنت بنى إسرائيل ، فسأل علماء قومه ،  
فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه ، فأخذ  
يفعل ما قص علينا الكتاب الكريم .

قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك إن  
كان صادقاً عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذباً فلا داعى للقتل .

ولا يعنينا من أمر هذه الرواية شيء ، فسواء صحت أو لم تصح ، فإن السر  
المعقول ما قصصناه عليك أولاً .

ثم علل اجترأحه لتلك الجرائم وإزهاقه للأرواح البريئة بقوله :  
 (إنه كان من المفسدين) ومن ثم سولت له نفسه أن يفعل ما فعل من تلك  
 القذائع وقتل سلاسل الأنبياء بلا جريئة ارتكبوها ، ولا ذنب جنوه ، وقد كانت  
 هناك وسائل عديدة ليصل بها إلى اتقاء شرور اليهود على حسب مايزعم ، وكان له فيها  
 غنيّة عن سفك الدماء ، ولكن قساة القلوب غلاظ الأكباد تتوق نفوسهم إلى  
 الوُلُوع في الدم ويجعلونه الترياق الشافي لحزازات نفوسهم ، وسخائم أفئدتهم .

ثم ذكر ما أكرم به هذا الشعب وما أتاح له من السلطان الديني والديني  
 فأسسوا دولة عظيمة في بلاد الشام وصاروا يتصرفون في أرض مصر كما شاءوا فقال :  
 (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) أي ونريد أن نتفضل  
 بإحساننا على من استضعفهم فرعون وأذلهم ، ونتجهم من بأسه ونريهم في أنفسهم  
 وفي أعدائهم فوق ما يحبون ، وأكثر مما يؤملون .

(ونجعلهم أئمة) مقتدى بهم في الدين والدنيا .

(ونجعلهم الوارثين) لملك الشام لا ينازعهم فيه منازع ، وقد جاء في آية أخرى :  
 « وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » وفي ثالثة  
 « كَذَلِكَ وَأَوْزَنَّاَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

(ونمكن لهم في الأرض) أي ونسلطهم على أرض مصر يتصرفون فيها كيفما  
 شاءوا بتأييدهم بكليم الله ثم بالأنبياء من بعده .

ثم بين ما نال عدوهم من النكال والوبال فقال :

(ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أي ونرى أولئك  
 لأقوياء والأعداء الألداء على أيدي بني إسرائيل من المذلة والهوان وما كانوا يتوقعونه  
 من زوال الملك والسلطان على يد مولود منهم ، ولكن لا يتجى حذر من قدر ، فنفذ  
 أحكم الله الذي جرى به القلم من القدم على يد هذا الغلام الذي احتقر من وجوده  
 وقتل بسببه ألوفاً من الولدان ، وكان منشؤه ومرباه على فراشه وفي داره ، وغداؤه

من طعامه وكان يدله ويتبناه ، وحفنه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه ، ليعلم أن رب السموات والأرض هو الغالب على أمره ، الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وخلاصة ما سلف :

(١) إن فرعون علا في الأرض . (٢) استضعف حزبا من أحزاب مصر .  
(٣) قتل الأبناء . (٤) استجيا النساء . (٥) إنه كان من المفسدين .  
وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكربة لبني إسرائيل :

(١) إنه من عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته :  
(٢) إنه جعلهم أئمة مقدمين في الدارين .  
(٣) إنه ورثهم أرض الشام .  
(٤) إنه مكن لهم في أرض الشام ومصر .  
(٥) إنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم على أيديهم .

هذان عظيمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار ، سنة الله في خلقه وإن تجد لسنة الله تبديلا : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُها بَيْنَ النَّاسِ » .

انظر إلى الدولتين الفارسية والرومية وما كان لهما من مجد بازخ وملك واسع ، كيف دالت دولتهما وذهب ريحهما بظلم أهلها وتقسيم ملكهما ، ثم قامت بعدها الدولة العربية وعاشت ما شاء الله أن تعيش ، ثم قام بعدها بنو عثمان وملكوا أكثر مما كان بيد الأمة العربية ثم هزمت دولتهم وشاخت واستولت عليها ممالك أوروبا .  
« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْمِمْ  
وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالتَقَطَهُ  
آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا  
كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ  
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ  
أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ  
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتِ لَأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ  
لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ  
عَلَىٰ أَهْلِ يَنْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ  
كَتَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

### شرح المفردات

الوحي : الإلهام كما جاء في قوله : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » والخوف : غم  
يحصل بسبب توقع مكروه يحدث في المستقبل ، والحزن : ( بفتح الحين و بضم فسكون  
كلأرشد والرشد والشفم والشفم ) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل ، واليم :  
البحر ، والمراد هنا نهر النيل ، والالتقاط : أخذ الشيء فجأة من غير طلب له ، والمراد  
من الخطأ هنا : الخطأ في الرأي وهو ضد الصواب والمراد به الشرك والعصيان بالله ،  
وقرت العين به : فرحت به وسرت ، فارغا : أى خاليا من العقل لما دهمها من  
خوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوه نحو ما جاء في قوله : « وَأَفْنِدْتَهُمْ



هوآء « أى خلاء لاعقول بها ، والإبداء : إظهار الشيء ، والربط على القلب : شدة والمراد هنا تثبيته ، وقصيه : أى اقتفى أثره وتبعى خبره ، فبصرت به : أى أبصرته ، عن جنب : أى عن بعد ، لا يشعرون : أى لا يدرون أنها أخته ، حرمتنا : أى منعنا ، يكفلون : أى يضمنون رضاعه والقيام بشئونه ، والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ما ينفعه فى غذائه وتربيته ولا يقصرون فى خدمته .

### الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه أنه سيمن على بنى إسرائيل الذين استضعفوا فى الأرض ، أردف ذلك بتفصيل بعض نعمه عليهم فقال :

( وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ) أى وألهمناها وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه ما أمكنتك إخفاؤه عن عدوه وعدوك .

( فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تحزنى ولا تحزنى ) أى فإذا خفت عليه من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون أولاد بنى إسرائيل اتباعاً لأمره أو من الجيران أن ينموا عليه إذا سمعوا صوته ، فألقيه فى النيل ولا تحزنى هلاكه ، ولا تحزنى لفراقه ، وقد تقدم فى سورة طه بيان الكيفية التى ألقته بها فى اليم .

روى أن دارها كانت على الشاطئ فالتحذت تابوتا ومهدت فيه مهداً وألقته فى النيل وليس هناك من دليل على الزمن الذى قضته بين الولادة والإلقاء فى اليم . ثم وعدّها سبحانه بما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤه غبطة وسروراً ، وهو رده إليها وجعله رسولا نبيا فقال :

( إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) أى إنا رادو ولدك إليك للرضاع وتكونين أنت مرضعه ، وباعثوه رسولا إلى هذا الطاغية وجاعلوه هلاكه ونجاة بنى إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه .

وهذه الآية اشتملت على أمرين : أرضعيه وألقيه ، ونهين : لا تحزنى ولا تحزنى ،

وخبرين : إنا رادوه إليه وجاعلوه . وبشارتين في ضمن الخبرين : وهما الرد والجعل من المرسلين ، حكى عن الأصمعي قال : سمعت أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله      قبلت إنسانا بغير حله  
مثل الغزال ناعما في دله      فالتصفت الليل ولم أصله

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ! قالت أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى : وأوحية إلى أم موسى الآية ؟ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين . ثم ذكر صدق وعده ومقدمات نجاته فقال :

( فالتقطه آل فرعون ) أى فأخذوه أهل فرعون أخذ اللقطة التى يعنى ٣٠ وتصان عن الضياع صبيحة الليل الذى ألقى فيه بالتابوت .

روى أن الموج أقبل به يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى امرأته إلى الشط فوجدن التابوت فأدخلته إليها وظنن أن فيه مالا ، فلما فتحنه وجدن فيه غلاما فوقعت عليها رحمته فأحبته .

ولما أخبرت فرعون به أراد أن يذبحه إذ قال إني أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل وأن يكون هلاكنا على يديه ، فلم تزل تسكمه حتى تركه لها .

ثم ذكر سبحانه أن العاقبة كانت ضد ما قصدت فقال :

( ليكون لهم عدوا وحزنا ) أى لتكون عاقبة أمره كذلك إذ أراد الله هذا ، وهذا كما تقول لآخر تؤنبه على فعل كان قد فعله وهو يظن نفسه محسنا فيه وأدى الأمر إلى مساءة وضير قد لحقه : فعلت هذا لضر نفسك ، وهو قد كان حين الفعل راجيا نفعه غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما يرجو ، وهذا جار على سنن العرب في كلامهم فيذكرون الحلال بالمال ، قال شاعرهم :

واللهنايا تربي كل مَرْضِعَةٍ      ودورنا لخراب الدهر نبثها

وقال آخر :

فلهوت تغزو الوالدات سَفْطاً      كما لخراب الدهر تبث المساكن

فعاقة البناء الخراب وإن كان فى الحال مفروحا به ، وعاقة تغذية السخال الذبح وإن كانت الآن تغذى لتسمن .

والخلاصة — إن الله قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا ، ويستبين لهم بطلان حذرهم منه .

وعداوته إياهم مخالفته لهم فى دينهم وحملهم على الحق ، وحزنهم بزوال ملكهم على يديه بالفرق بعد أن يُظهرَ فيهم الآيات ولا يستجيبوا لدعوته ، فتحل بهم القوارع كما هى سنة الله فى خلقه المكذبين .

ثم بين أن القتل الذى يفعله فرعون وهامان وجنوده لبنى إسرائيل حق وطيش فقال :

( إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ) أى إن هؤلاء كان من دأبهم الخطأ وعدم حسن التصرف فى العواقب ، ومن ثم قتلوا لأجله ألوفاً ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون .

ثم حكى سبحانه قول امرأة فرعون حين رآه فرعون وهم بقتله .  
( وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه ) أى قالت تخاصم عنه وتحميه إلى فرعون : إنه مما تقربه الميون وتفرح لرؤيته القلوب فلا تقتلوه .  
ثم ذكرت العلة التى قالت لأجلها ما قالت .

( عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ) أى لعلنا نصيب منه خيراً ، لأنى أرى فيه مخايل اليمين ودلائل النجابة ، كما قال الشاعر :

فى المهدي ينطق عن سعادة جده أثر النجابة ساطع البرهان

أو نتخذه ولدا لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التى تجعله أهلاً لتبنى الملوك له ، وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها .

ثم بين سبحانه أنهم لا يدرون خطأهم فيما صنعوا فقال :

( وهم لا يشعرون ) أى وهم لا شعور لهم بما خبأ لهم القدر وبما يثول إليه أمرهم

معة من عظام الأمور التي تؤدي إلى هلاكهم ، وإنما علم ذلك لدى غلام الغيوب فهو الذي يدري ما أراد بالتقاطهم إياه من الحكم البالغة ، والحجج القاطعة .

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال من لقيه موسى عليه السلام خبر عن حال من فارقه بقوله :

( وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ) أي إنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها شعاعا ، لما دهمها من الجزع والحزن وتوقع الهلاك الذي لا مندوحة منه جريا على عادته مع أنداده ولداته ، ولولا أن عصمناها وثبتنا قلبها لأعلنت أمرها وأظهرت أنه ابنها وقالت من شدة الوجد (وا ولداه) وقد فعلنا ذلك لتكون من المصدقين بوعدنا : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

ثم أخبر عن فعلها في تعرف خبره بعد أن أخبر عن كتمها إياه بقوله :

( وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ) أي وقالت لابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها : تتبع أثره ، وتشمي خبره ، فأبصرت عن بعد وهم لا يشعرون أنها تقصه وتعرف حاله وأنها أخته .

ثم شرع سبحانه يذكر أسباب رده إليها فقال :

( وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ) أي ومنعنا موسى المراضع من أول أمره ، فقالت أخته حين رأت اهتمامهم برضاعه : أنحبون أن أرشدكم إلى أهل بيت يأخذونه ويتولون تربيته ويقومون بجميع شئونه ولا يقصرون في خدمته والعناية بأمره .

روى عن ابن عباس أنها لما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها وقالوا لها : ما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت هم يفعلون ذلك رغبة منهم في سرور الملك ورجاء عطائه ، وبذا خلصت من أذاهم وذهبوا معها إلى منزلهم ودخلوا به على أمة فأعطته ثديها فالتيمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك

فاستدعت أم موسى وأحسنّت إليها وأعطتها العطاء الجزيل ، ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لى بعلا وأولادا ولا أستطيع المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها إلى ما طلبت ، وأجرت عليها النفقة والصلاّت والكسا وجزيل العطاء ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع ، وقد جاء فى الأثر « مثل الذى يعمل الخير ويحتسب كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » .  
وإلى هذا أشار سبحانه بقوله :

( فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ) أى فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون ، لتقر عينها بابنها إذا رجع إليها سليما ، ولا تحزن على فراقه إياها .  
( ولتعلم أن وعد الله حق ) أى ولتعلم أن وعد الله الذى وعدها حين قال لها : ( إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) حق لامية فيه ولا خلف وقد شاهدت بعضه ، وقاست الباقى عليه .

وبرده إليها تحققت أنه سيكون رسولا ، فربّته على ما ينبغى لمثله من كامل الأخلاق وفاضل الآداب .

( ولكن أكثرهم لا يعلمون ) حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودّة فى الدنيا والآخرة ، إذ قد يكون الشئ بغيضا إلى النفوس ظاهرا محمود العاقبة آخر كما قال :  
« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

وقد حدث هذا فى أمر موسى ، فقد ألقى فى اليم ثم رد إلى أمه مكرما ثم كان له من الوجهة فى الدنيا والآخرة ما كان .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى  
الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ  
إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ  
إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا  
لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ  
بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ  
أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ  
نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ  
تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) .

### شرح المفردات

واحدة الأشد : شدة كأنهم ونعمة ، والشدة : القوة والجلادة ، وبلوغ الأشد :  
استكمال القوة الجسدية وانتهاء النمو المعتد به ، والاستواء : اعتدال العقل وكماله ،  
ويختلف ذلك باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال ، والحكم : الحكمة ، والمدينة :  
هي مصر ، على حين غفلة : أي في وقت لا يتوقعون دخولها فيه ، من شيعته : أي  
ممن شاعبه وتابعه في الدين وهم بنو إسرائيل ، من عدوه : أي من مخالفيه في الدين  
وهم القبط ، فاستغاثه : أي طلب غوثه ونصره ، فوكره : أي فضربه بجمع يده ، أي  
بيده مجموعة الأصابع ، فقضى عليه أي قتله وأنهى حياته ، من عمل الشيطان : أي  
من تربيته ، مبين : أي ظاهر العداوة والإضلال ، فاغفر لي : أي فاستر ذنوبي ،  
لما أنعمت عليّ : أي أقسم بنعمك عليّ ، ظهيرا : أي معينا ، يترقب : أي ينتظر  
ما يناله من أذى ، استنصره : أي طلب نصره ومعونه ، يستصرخه : أي يطلب

الاستغاثة برفع الصوت ، غوى : أى ضال ، يبطش : أى يأخذ بصولة وسطوة ،  
والجبار : هو الذى يفعل ما يفعل دون نظر فى العواقب ، من المصلحين : أى ممن  
يبتغون الإصلاح بين الناس ويدفعون التخاصم بالحسنى .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من  
الهلاك بعد وضعه فى التابوت وإلقائه فى النيل وإنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى  
إسرائيل - أردفه بذكر ما أنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله  
رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ، ثم بذكر ما حصل منه من قتل المصرى  
الذى اختصم مع اليهودى بوكره بجمع يده وكان ذلك سببا فى موته ، ثم طلبه المغفرة  
من ربه على ما فعل ، ثم تصمييمه وعزمه ألا ينصر غويا مجرما ، ثم أعقب ذلك  
بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقد هم موسى بإغاثة أيضا ، فقال  
له المصرى أنت تريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين ؟ .

### الإيضاح

( ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ) أى ولما  
قوى جسمه واعتدل عقله آتيناه فقها فى الدين وعلما بالشريعة كما قال تعالى : «وَأَذْكُرَنَّ  
مَا يُلْقَىٰ فِي بُرُوتِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ» وكما جزينا موسى على طاعته إيانا  
وإحسانه بصره على أمرنا - نجزي كل من أحسن من عبادنا وأطاع أمرنا وانتهى  
عما نهيناه عنه .

وبعد أن أخبر بتهيئته للنبوذة ذكر ما كان السبب فى هجرته إلى مدين وتوالى  
الأحداث الجسام عليه فقال :

( ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ) أى ودخل مصر آتيا من عين شمس  
فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة .

روى أنه دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ، لأنه كان قد خالفهم في دينهم وعاب ما كانوا عليه .

ثم أبان ما حدث منه حينئذ فقال :

( فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى فقفى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ) أى فوجد في مصر رجلين أحدهما من بنى إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباح فرعون وكان قد طلب منه أن يحمل حطباً المطبخ فأبى ، فطلب الإسرائيلي من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى ، فضربه موسى بجمع يده في صدره وحنكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزوين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه فقال :

( إنه عدو مضل مبين ) أى إنه عدو فينبغى الحذر منه ، مضل لا يقود إلى خير بين العداوة والإضلال .

ثم أخبر بندم موسى على قتله نفساً لم يؤمر بقتلها بقوله :

( قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ) أى قال رب إني ظلمت نفسي بقتل نفس لا يحل قتلها ، فاغفر لي ذنبي واستره ولا تؤاخذني بما فعلت ، قال قتادة : عرف والله الخرج فاستغفراهم ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه : إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، وإنما عدت ذنباً وقال : ( إني ظلمت نفسي فاغفر لي ) من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق : ما أسألكم ، وأركبكم للكبيرة . سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الفتنة تجيء من ها هنا - وأوماً بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذى قتل من



آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » .

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال :

( غفر له ) أى فغفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه .

وبعدئذ ذكر ما هو كالعلة لما قبله فقال :

( إنه هو الغفور الرحيم ) أى إنه تعالى هو الستار للذنوب من أناب إليه ، المتفضل عليه بالعفو عنها ، الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ، ورجع عن حوبته .

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :

( قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ) أى قال رب اعصمى بحق ما أنعمت علىّ بعفوك عن قتل هذه النفس لأمتنع عن مثل هذا الفعل ، ولن أكون معيناً للمشركين فأصحبهم وأكثر سوادهم ، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد ، ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون .

وقد يكون المراد لأمتنع عن مظاهرة من تتول مظاهرة إلى الجرم والإثم كظاهرة الإسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به . ونحو الآية قوله : « وَلَا تَرَوْهُ كُنُوزًا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

( فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ) أى فصار موسى فى تلك المدينة التى قتل فيها القبطى خائفاً من جنائته التى جناها بقتله النفس التى قتلها ، وصار يتحسس الأخبار ويسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وما هم بالقوة به ؟ وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به ، وإذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى

يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى إنك لذو غواية وضلال  
لا شك فيه ، وقد تبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ، ثم دنا منهما .  
( فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى : أتريد أن تقتلنى كما  
قتلت نفسا بالأمس ) أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوها بالشدة والعنف  
قال له منكرا : أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت ؟  
وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

( إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين )  
أى وما تريد إلا أن تكون قاهرا عاليا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر  
فى العواقب ، ولا تريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفع  
تخاصمهم بالحسنى .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ  
يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا  
خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ  
مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِىَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ  
وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ  
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)  
فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ  
فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِسْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ  
لِيُخْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ

فَجَوَّتْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ  
 مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى  
 ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ  
 وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ  
 ذَلِكَ يَدْنِي وَيَذْنِكُ آيْمًا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ  
 وَكِيلٌ (٢٨)

### شرح المفردات

أقصى المدينة : أى أبعدهما مكانا ، يسعى : أى يسرع ، الملأ : أشرف الدولة  
 ووجوهها ، يأترون بك : أى يتشاورون فى أمرك قال الأزهرى انثر القوم وتآمروا إذا  
 أمر بعضهم بعضا كما قال : « وَأَتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ » وقال النمر بن تَوَابٍ :  
 أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يُؤْتَمَرُ

يترقب : أى يلتفت يَمَنَّةً وَيَسْرَةً ، توجه إلى الشيء : صرف وجهه إليه ، تلقاء  
 مدين : أى جهتها ، ورد : أى وصل ، والمراد بماء مدين : البئر التى كانوا يستقون  
 منها ، أمة : أى جماعة ، تذودان : أى تطردان غنهما عن الماء خوفا من السقاة  
 الأقوياء ، قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأى عصا تذودُ

ما خطبكما : أى ما شأنكما ولم لاتردان مع هؤلاء ؟ قال رؤبة : يا عَجَبًا ما خطبُهُ  
 وخطبِي ؟ يصدر الرعاء : أى يصرفون مواشيهم عن الماء ، والرعاء : واحدهم راع ، تولى :  
 أى انصرف ، والظل : ظل شجرة كانت هناك ، والخير يكون بمعنى الطعام كما فى الآية  
 وبمعنى المال كما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » وبمعنى القوة كما قال : « أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ »

تَبِعَ» وبمعنى العبادة كقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » فقير : أى محتاج والاستحياء : شدة الحياء ، ليجزيك : أى ليثيبك ، والقصص : الحديث القصص أى الخبر به ، أنكحك : أزوجك ، ويقال أجرته : أى كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا ، والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة ، قال زهير ابن أبى سلمى :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر

أشق عليك : أى أدخل عليك مشقة ، الأجلين : أى الأطول والأقرب ، فلا عدوان : أى فلا حرج ، وكيل : أى شهيد .

### المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون و بطانته إليه ، فآتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله ، وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتنم إيمانه ، فأسرع إليه يخبره الخبر وينصحه بالهرب ، فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ما قصه الله علينا فى هذه الآيات ، إلى أن رجع إلى مصر وقد أوتى النبوة وهو قافل فى طريقه .

### الإيضاح

( وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يآتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ) أى جاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم ، يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : يا موسى : إن الملك و بطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكائد ، وينصبون لك الحبال ، يريدون أن يقتلوك ، فالبدار البدار والهرب

الهرب قبل أن يقبضوا عليك ويُفقدوا ما دبروه ويقتلوك ، فأخرج من المدينة مسرعاً وإني لك لناصح أمين .

فانتصح بنصحه وتقبل قوله .

( أخرج منها خائفاً يترقب ) أى أخرج من مدينة فرعون خائفاً يترقب لحوق الطالبين ويتلفت يمينا ويسارا وينظر أيتبعه أحد ؟ .

ثم لجأ إلى الله تعالى علماً منه أن لاملجأ إلا إليه .

( قال رب نجني من القوم الظالمين ) أى قال : رب نجني من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور في غير مواضعها ، فيقتلون من لا يستحق القتل ومن لا يجرم إلى أحد ، فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين ، روى أن فرعون لما بعث في طلبه قال : ( اركبوا ثنيتات الطريق ) فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالاً فقاتلهم ونجا من بقيهم .

ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

( ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ) أى ولما اتجه نحو مدين ماضياً إليها شاخصاً عن مدينة فرعون ، قال : رب اهدني إلى سواء السبيل ، وأرشدني إلى الطريق القويم ، ونجني من هؤلاء الظلمة ؛ وقد قال هذا توكلًا على الله وثقةً بحسن توفيقه ، وقد كان لا يعرف الطريق ، فعن له ثلاث طرائق فسار في الوسطى وأخذ طالبوه في الآخرين ، وقالوا : المريب لا يسلك أعظم الطرق ، بل يأخذ بئياتها ( أضيقها غير المشهور منها ) وقد روى أنه بقي ثمانى ليال وهو حاف لا يطعم إلا ورق الشجر ، إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها .

ثم ذكر سبحانه ما جرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

( ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لانسق حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ) أى ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يردّه رعاء الشاء فوجد جماعة منهم

يسقون نعمهم ومواسيهم ، ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها، فلما رآهما موسى كذلك رق لهما ورحمهما، قال ما خبركما لم لا تردان الماء مع هؤلاء القوم ؟ فأجابته ، قائلاً : لانسقى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى ، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع السقى بنفسه ، فنحن نلجأ إلى ماترى ، تشرب مواسينا فضل الماء .

ثم ذكر ما قبله بعد أن سمع هذا القصص

( فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير ) أى فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح وناجى ربه قائلاً : إني لاحتاج إلى شيء تنزله إليّ من خزان جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال : لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شق تمر ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .  
فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه .

( فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ) أى فجاءته إحدى المرأتين تمشي وهي حياء قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سلفعا من النساء ( جريئة على الرجال ) خَرَّاجَةٌ وَلَا جَعَّةٌ .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعلتها بالجزاء حتى لا يتوهم من كلامها شيء من الريبة ، كما أن في كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لا يخفى .

وقد اختلف في الأب من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام وهو بعيد كل البعد ، لأن شعيبا كان قبل موسى بزمن طويل بدليل قوله تعالى لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » وقد كان هلاك قوم لوط في عصر الخليل عليه السلام كما نص

على ذلك الكتاب الكريم ، وكان بين إبراهيم وموسى ما يزيد على أربعائة سنة ،  
وفى كتب اليهود أن اسمه يثرو ؛ وفى التوراة فى الفصل الثانى من السفر الثانى مانصه :  
ولما سمع بهذا الخبر ( خبر قتل القبطى ) طلب أن يقتل موسى فهرب من بين  
يديه وذهب إلى مدين وجلس على بئر ماء ، وكان لكاهن مدين سبع بنات فجاءت  
وأدلت الدلاء وملأت الأحواض لسقى غنم أبيهن ، فلما جاء الرعاة طردوهن ، فقام  
موسى فأغاثهن وسقى غنمهن ، فلما جئن إلى رصواثيل أبيهن قال : ما بالكن أمرعن  
الحجى اليوم ؟ الخ .

وفى الفصل الثالث : وكان موسى يرعى غنم يثرو حميه كاهن مدين .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا فى الأجر .  
( فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ) أى فلما جاء  
موسى هذا الشيخ وحدثه حديثه مع فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد  
وتأمرهم على قتله وهربه منهم بعد الذى علمه - قال له : لا تخف من حولهم وطولهم ،  
إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لاسلطان لهم علينا ، ولسنا  
فى دائرة ملكهم .

ولما أمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

( قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين ) أى  
قالت واحدة من بناته : استأجر موسى ليرعى عليك ماشيتك ، فإن خير من تستأجره  
لارعى القوى على حفظ الماشية والقيام عليها فى إصلاحها وصلاحها ، الأمين : الذى  
لا تخاف خيائته فيما تأتمنه عليه منها .

ولا يخفى أن مقالا من جوامع الكلم والحكمة الباقية ، لأنه متى اجتمعت  
هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية فى القائم بأداء أمر من الأمور تكلل عمله بالظفر  
وكفل له أسباب النجاح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف في قوله : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وأبو بكر في عمر : ولما أعلبت البنت الشيخ بذلك :

(( قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ) أى قال أبو المراتين اللتين سقى لهما موسى : إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي الحاضرتين أمامك ، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما ، على أن تكون أحيرا لى ثمانى سنوات برعى لى فيها غنى فإن أتممت الثمانى السنين التى شرطتها عليك فجعلتها عشرا فأحسن من عندك ، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدني إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا .

وفى هذا دليل على مشروعية عرض لى المرأة لها على الرجل ، فقد عرض عمر ابن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر « لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر » ، الحديث أخرجه البخارى .

فأجابه موسى :

(( قال ذلك بينى وبينك ) أى قال ما شرطت علىّ فلك ، وما شرطت من تزوج إحداهما فى الأمر على ذلك لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على نفسك .

ثم فسر هذا بقوله :

(( أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ) أى أى المدينين قضيت ، الثمانى الحجج أو العشر وفرغت منها فوفيتكها برعى غنمك وما شئتك فليس لك أن تطالبني بأكثر منها .



روى «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أى الأجلين قضى موسى قال: أوفاهما وأبرهما» رواه الخطيب فى تاريخه .

ثم جعل الله شهيدا على صدق ما يقول كل منهما فقال :  
( والله على ما نقول وكيل ) أى والله شهيد على ما أوجب كل منهما على نفسه لصاحبه .

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا  
قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ  
مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ  
الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا  
وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) أَسْلَكَ يَدَكَ  
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَدًا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاصْصُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ  
الرَّهْبِ فَذَاكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا  
فَاسِقِينَ (٣٢)

### شرح المفردات

قضى الأجل : أى أتم المدة المضرورة بينهما ، آنس : أى أبصر بإبصارا يينا  
لاشبهة فيه ، جذوة : أى عود غليظ فى رأسه نارا ، تصطلون : أى تستدفئون ،  
والبقعة : القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها والجنان : الجنة الصغيرة التى  
توجد فى كثير من الدور ولا تؤذى ، ولم يعقب : أى ولم يرجع ، أسلك يدك : أى

أدخلها ، والجيب : الفتحة في القميص ونحوه من حيث يُخْرَج الرأس ، سوء : أى عيب ، والرهب : الخافة .

### المعنى الجملى

بعد أن قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما عزم على الرحيل إلى مصر لزيارة أهله وذوى قرابته ، وبما جراه على ذلك طول مدة الجناية وظنه أنه قد نسى أمره وكأنه أصبح فى خبر كان .

### الإيضاح

( فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا على آتيكم منها بخبر أو جدوة من النار لعلكم تصطلون ) أى فلما وفى موسى صاحبه الأجل الذى اتفق عليه مع حيه تحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره وسلك بهم الطريق فى ليلة مظرة وظلمة باردة ونزل منزلا فجعل كلما أوردى زنده لا يضيء شيئا ، فعجب لذلك ، وبينما هو كذلك رأى نارا تضيء عن بعد فقال لأهله انتظروا قليلا ، إني أبصرت نارا على آتيكم منها بخبر الطريق وكانوا قد ضلوا عنه ، أو آتيكم بقطعة من الخطب فيها نار لتستدفئوا بها من البرد وكان الوقت شتاء .

( فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ) أى فلما جاء إلى النار التى أبصرها من جانب الطور ناداه ربّه من جانب الوادى الأيمن : أى عن يمين موسى فى البقعة المباركة من ناحية الشجرة : يا موسى إني أنا الله ربك ورب العالمين جميعا . وقد خلق الله فيه علما يقينيا بأن التكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جعلت الشجرة مباركة ، لأنه تعالى كلم موسى هناك وبمته نبيا .

ثم أمره الله أن يلقي عصاه ليديه آية بقوله :  
 ( وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ) أى ونودى  
 بأن ألق عصاك فآلقاها فصارت حية تسعى ، فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان  
 من الحيات ، لسرعة عدوها وخفة حركتها - ولى هاربا منها ولم يرجع .  
 ثم نودى بما يهدى روعه :

( يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمين ) أى يا موسى أقبل إلى ولا تخف  
 مما تهرب منه ، فإنك آمن من أن ينالك سوء ، إنما هى عصاك أردنا أن نريك فيها  
 آية كبرى ، لتكون عونك لدى الطاغية الجبار فرعون ملك مصر .  
 ثم أراه آية أخرى زيادة في طمأنينته وأمره بقوله :

( اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ) أى أدخل يدك في جيب  
 قميصك تخرج ولها شعاع يضيء من غير عيب ولا برص .  
 ولما اعتري موسى الخوف من العصا تارة ، ومن الدهشة بشعاع يده مرة أخرى ،  
 أمره ربه أن يضع يده على صدره ليزول ما به من الخوف فقال :

( واضم إليك جناحك من الرهب ) أى وضع يدك على صدرك يذهب ما بك  
 من خوف ، كما يشاهد من حال الطائر ، إذا خاف نشر جناحيه ، وإذا أمن واطمأن  
 ضمهما إليه ، وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان .  
 قال ابن عباس : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه .  
 ثم ذكر فذلك لما تقدم بقوله :

( فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ) أى فما تقدم من جعل العصا  
 حية تسعى وخروج اليد بيضاء من غير سوء بعد وضع اليد في الجيب - دليلان  
 واضحان على قدرة ربك وصحة نبوة من جريا على يديه ، أرسلناهما إلى فرعون وقومه .  
 ثم ذكر العلة في إظهار الآيات لهم بقوله :

( إنهم كانوا قوما فاسقين ) أى إنهم قوم خارجون عن طاعة الله ، مخالفون

لأمره ، منكرون لكل دين جاء به الرسل ، فكانوا جديرين بأن ترسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

### شرح المفردات

الردء : العون ، يقال ردأته على عدوه : أى أعنته عليه ، قال الشاعر :  
 ألم تر أن أصرم كان ردئى وخير الناس فى قل ومال  
 يصدقنى : أى يوضح ما قلته ويقيم عليه الأدلة ويجادل المشركين ، والعضد : ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بشد العضد : التقوية والإعانة . قال طرفة :  
 بنى لبئنى لستم بيد إلا يدا ليست لها عضد  
 والسلطان : التسلط والغلبة ، مفترى : أى مخلق ، عاقبة الدار : أى العاقبة المحمودة فى الدار الدنيا التى تقضى إلى الجنة .

### المعنى الجملى

اعلم أنه لما قال سبحانه لموسى فذانك برهانان من ربك علم أنه سيذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه — حينئذ طلب منه أن يؤتیه ما يقوئى به قلبه ويزيل

خوفه من فرعون ، لأنه إنما خرج من ديار مصر فرارا منه وهربا من سطوته ، فيرسل معه أخاه هرون وزيرا فأجابه إلى ما طلب ، وأرسله هو وهرون إلى فرعون وملائه ومعهما المعجزات الباهرة ، والأدلة الساطعة ، فلما عاينوا ذلك وأيقنوا صدقه لجئوا إلى العناد والمكابرة فقالوا ما هذا إلا سحر مفتعل ، وما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، فقال لهم موسى : ربي أعلم بالهتدى منا ومنكم وسيفصل بيني وبينكم ويجعل النضر والتأييد للصالحين من عباده .

### الإيضاح

( قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ) أي قال يارب إني قتلت من قوم فرعون نفسا فأخاف إن أثبتهم ولم أُن عن نفسي بحجة أن يقتلوني ، لأن ما في لساني من عقدة يحول بيني وبين ما أريد من الكلام ، وأخى هرون هو أفصح مني لسانا وأحسن بيانا ، فأرسله معي عوناً يلخص بلسانه القصيح وجوه الدلائل ، ويحجب عن الشبهات ، ويجادل هؤلاء الجاحدين المعاندين ، وإني أخاف أن يكذبوني ولساني لا يطاوعني حين الحاجة .

فأجابه سبحانه إلى ما طلب .

( قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطانا فلا يسلون إليك ) أي سنقويك ونعينك بأخيك ونجعل لك تسليطا عظيما وغلبة على عدوك ، فلا يسلون إليك بوسيلة من وسائل الغلب .

( بآياتنا أتينا ومن اتبعك الغالبون ) أي أتينا ومن اتبعك الغالبون بحججنا وسلطاننا الذي نجعله لك .

وفي هذا دليل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة شيء مما هددهم به لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين أنفسهم في سبيل الله .

ثم أبان ما صدر من فرعون عقب مجيء موسى إليه فقال :  
 ( فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا  
 الأولين ) أى فحين جاء موسى بالحجج البالغة الدلالة على صدق رسالته - فرعون وملائه ،  
 قالوا ما هذا إلا سحر افتريته من عندك وانتحلته كذبا وبهتاناً ، وما سمعنا بهذا الذى  
 تدعوننا إليه من عبادة إله واحد فى أسلافنا وآبائنا الذين مضوا من قبلنا .  
 وهذا تحكيم لعادة التقليد التى أضلت كثيرا من الناس ، على أنهم قد كذبوا  
 وافتروا فإنهم سمعوا بذلك فى عهد يوسف عليه السلام ( وما بالعهد من قدم ) فقد قال  
 لهم الذى آمن : « يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ - إِلَى أَنْ قَالَ -  
 وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » .

ولما كذبوه كفرا وعنادا وهم الكاذبون رد عليهم بما أشار إليه بقوله :  
 ( وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار )  
 أى وقال موسى مجيبا فرعون وملائه : ربى أعلم بالحق منا يا فرعون من المبطل ، ومن  
 الذى جاء بالحق الذى يوصل إلى سبيل الرشاد ، ومن الذى له العقبى المحموده  
 فى الدار الآخرة ؟ .

وفى هذا الأسلوب من أدب الخطاب فى الحجاج والمناظرة ما لا يخفى ، فهو لم يؤكّد  
 أن خصمه فى ضلال كالم ينسبه إلى نفسه بل رده بينهما وهو يعلم أنه لأيهما ،  
 وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبي صلى الله عليه وسلم للمشرّكين بقوله :  
 « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

ثم علل هذا بأن سنة الله قد جرت بأن المخذول هو الكاذب فقال :  
 ( إنه لا يفلح الظالمون ) أى إنه لا ينجح الكافرون ولا يدركون طليعتهم ،  
 وفى هذا إيماء إلى أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة ، بل يحصلون على ضد ذلك ، وهذا  
 غاية الزجر والتهديد لتكفهم عن العناد .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي  
يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي  
لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ  
وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجِعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ  
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِنَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ  
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ  
الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ  
مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ  
يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)

### شرح المفردات

هامان : وزير فرعون ، صرحا : أى قسرا عاليا ، أطلع : أى أصدد وأرتقى ،  
فنبذناهم : أى طرحناهم ، أئمة : واحد إمام ، وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ،  
يدعون إلى النار : أى إلى ما يوجبها من الكفر والمعاصى ، لعنة : أى طردا من  
الرحمة ، من المقبوحين : أى الخزيين ، يقال قبحه الله : أى نحاه من كل خير ،  
وقبحت وجهه وقبحت بمعنى ، قال الشاعر :

ألا قبح الله البراجم كلها      وقبح ير بوعا وقبح دارما

الكتاب : هو التوراة ، القرون الأولى : هم قوم نوح وهود وصالح ، بصائر : واحداها  
بصيرة ، وهى نور القلب للتمييز بين الحق والباطل .

## المعنى الجملی

بعد أن رغب موسى فرعون وقومه في التوحيد والنظر في الكون تارة ورهبهم من عذاب الله وشديد نكاله تارة أخرى - أجابه فرعون بتلك المقالة التي تدل على الجهل المطبق ونقصان العقل ، وأنه بلغ غاية لاحد لها في الإنكار وأنه لامطمع في إيمانه ، لعنوه وطغيانه واستكباره في الأرض حتى قال ما قال ، ومن ثم كانت عاقبته في الدنيا الهلاك بالغرق هو وجنوده واللعن من الله والناس ، وفي الآخرة الطرد من رحمة الله .

ثم أخبر سبحانه أنه آتى موسى التوراة وجعلها نورا للناس يهتدون بها وتكون لهم تذكرة من عقاب الله وشديد عذابه .

## الإيضاح

( وقال فرعون يأيتها الملائمة ما علمت لكم من إله غيري ) أى قال يأيتها القوم ما علمت لكم في أى زمن إلهها غيرى كما يدعى موسى ، والأمر محتمل أن يكون وسأحقق ذلك لكم ، وهذا كلام ظاهره الإنصاف ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقول لهم بعد ذلك في شأن الإله وتسليمهم إياه ، اعتمادا على ما رأوا من عظيم نصافته في القول .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان قالهما فرعون ( ما علمت لكم من إله غيري ) وقوله : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » كان بينهما أربعون عاما ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

وخلاصة مقاله — لا علم لى رب غيرى فتعبده وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله ربنا غيرى ومعبودا سوى .

ونحو الآية قوله : « فَخَشِرَ فَنَادَى : فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » وقوله : « لَكِنِ اتَّخَذَتِ الْهَمَّا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » .



قال الرازي : ليس مراده من ادعاء الألوهية أنه خالق السموات والأرض والبحار والجبال وخالق الناس ، فإن العلم بامتناع ذلك واضح لكل ذى عقل ، بل مراده بذلك وجوب عبادته ، فهو ينفى وجود الإله ويقول : لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا مليكهم وينقادوا لأمره اه بتصرف .

ثم خاطب وزيره أمرا له على سبيل التهمك أمام موسى ، ليشتك قومه في صدق مقالته .

( فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ) أى فاصنع لى آجراً واجعل لى منه قصرا شامخا وبناء عاليا أضعده وأرتقى إلى إله موسى الذى يعبد فى السماء ، ويدعى أنه يؤيده وينصره وهو الذى أرسله إلينا .

وبمعنى الآية قوله : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا » .

ثم زاد قومه شكاً فى صدقه بقوله :

( وإنى لأظنه من الكاذبين ) أى وإنى لأظنه كاذبا فيما يدعى من أن له معبودا فى السماء ينصره ويؤيده وأنه هو الذى أرسله .

ثم ذكر سبحانه ما هو كالسبب فى العناد والجحود فقال :

( واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ) أى ورأى هو وجنوده كل من سواهم فى أرض مصر حقيرا ، عتوا منهم على ربهم ، وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ولا يثابون ولا يعاقبون ، ومن ثم ركبوا أهواءهم ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد ، وأنه مجازيهم على خيبت أعمالهم وسيء أقوالهم .

ثم أخبر بما نالهم من عقاب الدنيا بعد أن توعدهم بعقاب الآخرة فقال :

( فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ) أى فجمعنا فرعون وجنوده من القبط فألقيناهم جميعا فى البحر .

وفي هذا ما لا يخفى من الدلالة على عظم شأن الخالق وكبريائه وسلطانه وشديد  
اجتقاره لفرعون وقومه واستقلاله لهم وإن كانوا عددا كثيرا وجما غفيرا ، فما مثلهم  
إلا مثل حصيات صغار تذفها الريح من يده في البحر .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وقومه بالنظر والاعتبار والتأمل في المواقب  
ليعلموا أن هذه سنة الله في كل مكذب برسوله فقال :

( فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ) أى فانظر أيها المعتبر بالآيات ، كيف كان  
أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وكفروا بربههم وردوا على رسوله نصيحته -  
ألم نهلككم ونورث ديارهم وأموالهم أوليائنا ونحوهم ما كان لهم من جنات وعيون  
وكنوز ومقام كبير بعد أن كانوا مستضعفين ، قُتِلَ أبنائهم وتستحي نساؤهم ، وإنا بك  
وبمن آمن بك فاعلون ، فمخولوك وإياهم ديار من كذبك وردَّ عليك ما أتيتهم به من  
الحق ، وأموالهم بعد أن تستأصلوهم قتلا بالسيف - سنة الله في الذين خلوا من قبل .  
ثم ذكر ما يوجب سوء عاقبتهم وعذابهم في النار فقال :

( وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ) أى وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدى بهم  
أهل العتو والكفر بالله ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي ، وتدسية النفوس  
بالفسوق والآثام التي تلبق بغاعلها في النار .

وما كفاهم أن يكونوا ضالين كافرين بالله ورسوله ، بل دأبوا على إضلال سواهم  
وتحسين العصيان لهم ، وبذا قد ارتكبوا جريمتين ، فباءوا بجزائين : جزاء الضلال  
وجزاء الإضلال ، وقد جاء في الحديث : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر  
من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها  
إلى يوم القيامة » .

ثم ذكر أنه لا نصير ولا شفيخ في ذلك اليوم فقال :

( ويوم القيامة لا ينصرون ) أى ويوم القيامة لا يجدون نصيرا يدفع عنهم عذاب

الله إذا خاف بهم ، وقد كانوا في الدنيا يتناصرون ، فكان لهم مطمع في النصرة يومئذ على حسب ما يعرفون .

ثم ذكر ما هو كالفداكة لما تقدم وبين سوء حالهم في الدارين فقال :  
( وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة هم من المقبوحين ) أى وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبًا منا عليهم ومن ثم قضينا عليهم بالهلاك والوبار وسوء الأحداث ، ونحن مُتَّبِعُوهم لعنة أخرى يوم القيامة ، فحزروهم الخزي الدائم ومهينوهم المهوان اللازم الذى لا فكاك عنه .

ثم بين سبحانه الحاجة التى دعت إلى إرسال موسى ليكون كالنوططة لبيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :  
( ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون ) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفصلنا فيها الأحكام التى فيها سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم من بعد ما أهلكنا الأمم التى من قبلهم كقوم نوح وهود وصالح ، ودرست معالم الشرائع وطمست آثارها واختل نظم العالم وفشا بينهم الشرور رفع الخير . فاحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح ما فسد من عقائدهم وأفعالهم ، بتقرير أصول في ذلك التشريع تبقى على وجه الدهر ، وترتيب فروع تتبدل بتبدل المصنوع واختلاف أحوال الناس ، وفيها التذكير بأحوال الأمم الخالية ليكون في ذلك عبرة للناس ، ونور لقلوبهم ، تبصر به الحقائق وتميز بين الحق والباطل ، بعد أن كانوا في عناية عن الفهم والإدراك ، وتهديدهم إلى ما يوصلهم إلى القرب من ربهم ونيل رضوانه ومغفرته ورحمته ، ليتذكروا نعم الله عليهم فيشكروه عليها ولا يكفروا بها .

قال أبو سعيد الخدري : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعداب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة

على موسى غير القرية التي مسخت قرده ، ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

### شرح المفردات

الغربي : هو الجبل الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى ، قضينا : أى عهدنا إليه وكلفناه أمرنا ونهينا ، الأمر : أى أمر الرسالة ، الشاهدين : أى الحاضرين ، فتطاول عليهم العمر : أى بمد الأمد ، ونحوه : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » ثاويا : أى مقيا . قال العجاج :  
\* فبات حيث يدخل الثَّوِي \* أى الضيف المقيم ، أهل مدين : أى قوم شعيب عليه السلام ، مصيبة : أى عذاب الدنيا والآخرة ، ولولا الثانية بمعنى هلا وتفيد تمنى حصول ما بعدها والحث عليه .

### المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أنه أرسل موسى بعد أن أهلك القرون الأولى ودرست الشرائع واحتيج إلى نبي يرشد الناس إلى ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم

أردف ذلك ببيان الحاجة إلى إرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لمثل تلك الدواعى التى دعت إلى إرسال موسى عليه السلام ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولأن رحمته اقتضت ألا يعذب أحدا إلا إذا أرسل رسولا ، ويتضمن ذلك كون القرآن وحيا من عند الله ، لأن ما فصل فيه من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها ، وقد انتفى كلاهما فتبين أنه بوحى من علام الغيوب .

### الإيضاح

(وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) أى وما كنت حاضرا بجانب الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى حين عهدنا إليه أمر النبوة ، وما كنت من جملة السبعين الذين اختيروا لسماع تفاصيل ذلك الأمر الذى أوحينا به إلى موسى حتى تخبر به كله على الوجه الذى أتيناك به فى هذه الأساليب المعجزة .

وخلاصة ذلك — إن إخبارك بالغيوب الماضية التى لم تشهدها وقد قصصتها كأنك سامع راء لها وأنت أمدى لا تقرأ ولا تكتب ، وقد نشأت بين قوم أميين لا يعرفون شيئا من ذلك — هو من أعظم البراهين على نبوتك ، وإن إخبارك بذلك إنما هو بوحى من الله كما قال : « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » .

(ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر) أى ولكننا أنشأنا من عهد موسى إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر إلى أن وجد القرن الذى أنت فيه فدرست العلوم فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى وأرسلناك بما فيه سعادة البشر .

والخلاصة — إنك ما كنت شاهدا موسى وما جرى له ولكننا أوحيناك إليك ، وفى هذا تنبيه إلى المعجزة كأنه قال : إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله — دلالة ظاهرة على نبوتك .

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

(١) ( وما كنت ثابِتاً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ) أى وما كنت مقبلاً بين أهل مدين تتلفظ القصة من شاهدها ، وتقرؤها عليهم بطريق التعلّم منهم كما يقرأ التعلّم على معلمه ، فتتفهّم أخبار موسى بهذا الطريق ونحوه .  
( ولكنّا كنّا مرسلين ) لك موخين إليك تلك الآيات ونظائرهما ، ولولا ذلك ما علمتها وما أخبرتهم بها .

(٢) ( وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ) أى وما كنت بجانب الطور ليلة المناجاة وتكليم الله موسى حتى تحدّث أخبارها وتفصل أحوالها حديث الخبير العليم ببواطن أمورها وظواهرها .

( ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بتلك الأخبار وبغيرها بما فيه صلاح البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ، لتنذر قوما لم يأتهم قبلك نذير ، وتحذّرهم بأس الله وشديد عقابه على إشرأكلهم به وعبادتهم الأوثان والأنداد ، لعلهم يرجعون عن غيرهم ويتذكرون عظيم خطيئهم وكبير جرّهم فينبهوا إلى ربهم ويقروا بوحدانيته ويفرّده بالعبادة دون سواه من الآلهة .

ثم ذكر الحكمة في إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، وأن في ذلك قطعاً لمعذرتهم حتى إذا جاءهم بأسنا لم يجدوا حجة فقال :

( ولولا أن تصيهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ) أى ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلناك إليهم حين يحلّ بهم بأسنا ويأتيهم عذابنا على كفرهم بربهم واجترأهم للمعاصي قبل أن نرسلك إليهم : ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولا قبل أن يحلّ بنا سخطك ونزل بنا عذابك ، فتتبع أدلتك وآى كتابك التى تنزلها عليه وتكون من المؤمنين بالوحياتك المصدقين برسولك - لعاجلناهم العقوبة على شركهم ، لكنّا بعثناك إليهم نذيراً ببأسنا

كما هو سنتنا في أمثالهم كما جاء في الآية الكريمة : «لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» .

والخلاصة — إنا أرحمنا العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك أيها الرسول إليهم ، وقد حكمتنا بأننا لا نغاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرٌ أَنْ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَلَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) .

### شرح المفردات

الحق : أى الأمر الحق وهو القرآن ، سحران : أى ما أوتيه موسى وما أوتيه محمد ، تظاهرا : أى تعاونا وتناصرا ، فإن لم يستجيبوا لك : أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به ، والتوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض قال شاعرهم :  
فقل لبنى مروان ما بال ذمتي بحبل ضعيف ما يزال يوصل  
والمراد به هنا إنزال القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض .

### المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أنه إنما أرسل رسوله قطعا لمعذرتهم حتى لا يقولوا حين نزول بأسنا بهم : هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبعه — أردفه ببيان أنه حين يحىء

الرسول وإنزال القرآن عليه جحدوا به وكذبوا رسالته ولم يعتدوا بكتابه وطلبوا محيى معجزات كمعجزات موسى من محيى التوراة جملة وقلب العصا وإخراج اليد بيضاء من غير سوء ، وقد كفر المعاندون من قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات وقالوا : ما هى إلا سحر مفترى وماهى إلا أساطير الأولين وإن موسى ومحمدا ساحران تعاونا على الخداع والتضليل ، وإنا لكافرون بكل منهما .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إن استطعتم أن تأتوا بكتاب خير من كتابيهما موصل إلى الحق هاد إلى سبيل الرشاد فافعلوا ، فإن لم تستطيعوا ذلك فأنتم متبعون للهوى ، سالكون سبيل الضلال ، ولا أضل من يسلك هذه السبيل .  
ثم ذكر أنه ما أرسل الكتاب منجما على هذا النهج إلا ليكون فيه عبرة وذكرى لهم بين آن وآخر لعلهم يرتدعون عن غيهم ويشوبون إلى رشدهم .

### الإيضاح

( فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ) أى فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله - بالكتاب الكريم قالوا تمرداً وعناداً وتمادياً فى النى والضلال : هلا أوتى مثل ما أوتى موسى من المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وتظليل الغمام إلى نحو أولئك .  
ثم ذكر أن هذه شئنة المعاندين فى كل زمان ، لا يريدون بما يقولون إظهار الحق بل يقصدون التمادى والإنكار ، ألا ترى أن من أرسل إليهم موسى قالوا مثل هذه المقالة كما أشار إلى ذلك بقوله :

( أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ ) أى إن المعاندين الذين مذهبهم كذهبكم وهم الكفار الذين كانوا فى زمن موسى كفروا بما جاء به موسى ، فأنتم متبعون نهجهم وسالكون سبيلهم .

ثم بين طريق كفرهم به فقال :

( قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ) أى قالوا إن موسى ومحمدا ساحران



تعاوننا على الدَّجَلِ والتَّضْلِيلِ وخداع الشَّدَجِ من الجماهير ، ولم يرسلهما ربهما لهداية البشر كما زعما ، وإنا لكاफرون بكل منهما ولا نؤمن بما جاء به .  
ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى قومه بأن يأتوا بكتاب أهدى للبشر وأصلح لحالهم في المعاش والمعاد من التوراة والقرآن فقال :

( قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ) أى اتقونى بكتاب من عند الله أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن ، فإن جئتم به فإني لأتركهما وأتبع ما تحيئون به ، إن كنتم صادقين فيما تقولون ، جادين فيما تدعون .

ثم توعدهم إذا هم نكصوا على أعقابهم ولم يلبوا طلبه ولم يأتوا بالكتاب فقال :  
( فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ) أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به فاعلم أنهم سادرون فى غلوائهم ، متبعون لأهوائهم ، راكبون لرؤوسهم ، حاثدون عما يقتضيه الدليل والبرهان .

ثم بين عاقبة من يتبع الهوى فقال :

( ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ) أى ومن أضل عن طريق الرشاد وسبيل السداد ممن سار متبعاً الهوى بغير بيان من الله وعهد منه بما ينزله على رسله بوحى منه .

وفى هذا من التشنيع عليهم وتقبيح فعلهم ما لا يخفى على كل ذى لب .

ثم بين سنته تعالى فى خلقه فقال :

( إن الله لا يهدي القوم الظالمين ) أى إن الله لا يوفق لإصابة الحق وأتباع سبيل الرشاد ، من خالفوا أمره ، وتر نواطعته ، وكذبوا رسله ، وبدلوا عهده ، واتبعوا هوى أنفسهم إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمن .

ولما أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بين الحكمة فى إنزال القرآن منجماً فقال :

( ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ) أى ولقد نزلنا عليهم القرآن متواصلاً

بعضه أثر بعض على ما تقتضيه الحكمة وترشد إليه المصلحة ، وهي أن يكون أقرب إلى التذكير والتنبية ، فهم في كل يوم يظلمون فيه على حكمة جديدة وفائدة زائدة فينكون ذلك أدعى إلى إيمانهم ورسوخه في نفوسهم وامتلاء قلوبهم نوراً به .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) .

### شرح المفردات

مسلمين : أى متقادين خاضعين لله ، يدرءون أى يدفعون ، واللغو : ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول ، سلام عليكم : أى سلام لكم مما أتم فيه ، لا نبتغي الجاهلين أى لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فجازيكم على باطلكم بباطل مثله .

### المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما في كتبهم من وصف ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا عليه قرأ عليهم (يس والقرآن الحكيم) حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا .

### الإيضاح

(الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) أي الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب ، ثم أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا بالقرآن ، لأنهم قد وجدوا في كتبهم البشري به ، وانطبق الأوصاف عليه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ » ، وقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

(وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) أي وإذا تلى هذا القرآن عليهم قالوا صدقنا بأنه نزل من عند ربنا حقا ، وقد كنا مصدقين به قبل نزوله ، لأننا وجدنا في كتبنا نعت محمد ونعت كتابه .

وفي هذا إيعاء إلى أن إيمانهم به متقادم العهد ، فأبأوهم الأولون قروا في الكتب الأول ذكره ، وأبناوهم من بعدهم فعلوا كما فعلوا من قبل نزوله .

ثم بين جزاءهم على إيمانهم به بعد إيمانهم بما سبقه من الكتب بقوله : (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أي هم يؤتون ثواب عملهم مرتين : مرة على إيمانهم بكتبهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمانين ، فإن تجشم مثل هذه المشاق شديدا على النفوس ، فقد يصيبهم من جزاء ذلك أذى من قومهم أو من المشركين في اتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

ونحو الآية قوله تعالى في شأنهم « يُؤْتِيَكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » وفي الحديث الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه

ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فزوجها » وروى أبو أمامة قال : إني لستحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله ما لنا وعليه ما علينا » .

ثم ذكر من أوصافهم ما يؤهلهم للزلفى والقرب من ربهم فقال :

(١) ( ويدرون بالحسنة السيئة ) أى وهم يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم بالصفح والعفو عنه .

(٢) ( ومما رزقناهم ينفقون ) أى وينفقون مما أعطاهم الله من فضله من المال الحلال النفقات الواجبة لأهلهم وذوى قرباهم ، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ويساعدون البائسين وذوى الخصاصة المعوزين .

(٣) ( وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ) أى وإذا سمعوا ما لا ينفع فى دين ولا دنيا من السب والشتائم وتكذيب الرسول أعرضوا عن قائله ولم يخاطبوه ، وإذا سفه عليهم سفیه وكلهم بما لا ينبغي رده من القول لم يقابلوه بمثله ، إذ لا يصدر منهم إلا طيب الكلام وقالوا لنا أعمالنا لا نتأبون على شيء منها ولا تعاقبون ، ولكم أعمالكم لا نطالب بشيء منها ، فنحن لا نشغل أنفسنا بالدرد عليكم ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، فإننا لا نريد طريق الجاهلين .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِذَا مَرَّوْا بِاللَّغْوِ مَرَّوْا كِرَامًا » .

روى محمد بن إسحق « أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً أو يزيدون حين بلغهم خبره ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قریش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألتهم عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبتكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخير الرجل ، فلم تطمنن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما رأينا ركباً أحق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لانا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيراً .

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تُخْطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ  
تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) .

### شرح المفردات

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير وهي التي أثبتها الله لرسوله في قوله « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء في قوله : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا » وهي بهذا المعنى نفيت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ، يجي إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبي الماء في الحوض : أى جمعه ، والجالية : الحوض العظيم ، والخطف : الانزعاج بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد .

### المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا به وجاءوا إليه زرافات ووحدانا من كل فج عميق وجابوا الفياق وقطعوا البحار للإيمان به ،

بعد أن سمعوا أخباره ، وترامت لهم فضائله وشماله ، وقد كان في هذا مقنع لقومه أن يؤمنوا به وأن تحدثه نفسه الشريفة بالطمع في إيمانهم ، ودخول الهدى في قلوبهم والانتفاع بما آتاه الله من العرفان ، فيكون لهم به السعادة في الدنيا والآخرة - أردف ذلك بالآية الأولى تسليية له صلى الله عليه وسلم إذ لم ينجع في قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص - إنذاره وإبلاغه ، فيقبلوا ما جاء به ، بل أصروا على ما هم عليه وقالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه آمنوا بما جاء به وقالوا إنه الحق من ربنا .

وقد استفاضت الأخبار بأن الآية نزلت في أبي طالب ، فقد أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاة آتاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا عمه : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة ، فقال : لولا أن تعيرني قريش ، يقولون ما حملة على ذلك إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك ، فأنزل الله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) » الآية .

ونزل في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حين أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ونحن أكلة رأس (يريد إنا قليلو العدد) أن يتخطفونا - قوله تعالى : ( وقالوا إن تتبع الهدى ) الآية .

### الإيضاح

( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ) أى إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ هدى من أحببت من قومك أو من غيرهم هدى موصلا إلى البغية ، فتدخله في دينك وإن بذلت كل مجهود ، وإنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وبمعنى الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، وقوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

( وهو أعلم بالمهتدين ) أى وهو أعلم بالمستعدين للهداية فيمنحوها ، ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب دون من هم من أهل الغواية كقومك وعشيرتك . ثم أخبر سبحانه عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباعهم للهدى فقال :  
( وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا ) أى وقالوا : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى ويحاربونا ويحولنا من ديارنا .

فرد الله عليهم مقالته وأبان لهم ضعف شبهتهم فقال :  
( أولم نمكن لهم حرماً آمناً يحى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ )  
أى إن ما اعتذرتم به لا يصلح أن يكون عذرا ، لأننا جعلناكم فى بلد أمين وحرم معظم منذ وجد ، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لكم حال كفركم وشرككم ولا يكون آمنا لكم وقد أسلمتم واتبعتم الحق ؟ قال يحيى بن سلام : يقول : كنتم آمنين فى حرى ، تأكلون رزق ، وتعبدون غيرى ، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى ؟ وقد تفضل عليكم ربكم وأطعم أهلهم من كل الثمرات التى تجلب من فجاج الأرض والمتاجر والأمتعة من كل بلد ، رزقا منه لكم .

( ولكن أ أكثرهم لا يعلمون ) أى ولكن أ أكثرهم جهلة لا يفطنون إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ومن ثم قالوا ما قالوا ، وقد كان من حقهم أن يعلموا أن تلك الأرزاق إنما وصلت إليهم من ربهم ، فهو الذى يخشى ويتقى لا سواء من المخلوقين .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَنْسَكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)

## شرح المفردات

بطرت: أى بغت وتجبرت ولم تحفظ حق الله، وأمها: أ كبرها وأعظمها، وهى قصبتها (عاصمتها) .

## المعنى الجملى

هذا هو الرد الثانى على شبهتهم، فإنه بعد أن بين ماخص به أهل مكة من النعم أتبعه بما أنزله على الأمم الماضية الذين كانوا فى رغد من العيش، فكذبوا الرسل، فأزال عنهم تلك النعم، وأحل بهم النقم .

وإجمال هذا - إن قولكم لا تؤمن خوفا من زوال النعم ليس بحق، بل الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذى يزيل هذه النعم .  
ثم بين أن من سنته تعالى ألا يهلك قوما إلا إذا أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

## الإيضاح

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى وكثير من القرى أثرى أهلها وسعوا فى الأرض فسادا و بطروا تلك النعم فخرّب الله ديارهم، وأصبحت مساكنهم خاوية لم يعمر منها إلا أقالها وصاروا كثرها خرابا يبابا .

ونحو الآية قوله: « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » (وكنا نحن الوارثين) لهم، إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ما يتصرفون فيه، والشئ إذا لم يبق له مالك معين قيل إنه ميراث الله، لأنه هو الباقي بعد خلقه .

ونحو الآية قوله: « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .



ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لا يهلك أحدا إلا بعد الإنذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال :

( وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا )  
أى وما كانت سنته في عباده أن يهلك القرى حتى يبعث في كبرها رسولا يتلو  
عليهم الآيات الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب حينما والترهيب حينما آخر ، فيكون  
ذلك أدعى إلى إلزام الحجة وقطع المعذرة .

وإنما كان البعث في أم القرى ، لأن في أهلها فطنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة  
وأعرف بمواقع الحق ؛ إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم  
يسكنون المدائن وهى أم ماحولها .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » .

ثم بين أنه لا يهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا  
رسلهم فقال :

( وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ) أى ولا نهلك القرى التى نبعث  
فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ويرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا  
بتكذيب الرسل وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها  
واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكتهم وهم  
مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ  
وَأَبْقَى أَفْلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ  
مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) .

## شرح المفردات

من المحضرين: أى الذين يُحضرون للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال : « لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ » وقال : « إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس التكاثر والمضار .

## المعنى الجملى

هذا هو الرد الثالث على تلك الشبهة ، فإن خلاصة شبهتهم أنهم تركوا الدين لثلاث تقوتهم منافع الدنيا ، فرد الله عليهم بأن ذلك خُرْق رأى وخطأ عظيم ، فإن ما عند الله خير مما فيها لكثرة منفعه وخلوصه من شوائب المضار ، ومنافعها مشوبة ، وهو أبقى مما فيها ، لأنه دائم لا ينقطع ، ومنافعها لا بقاء لها ، فمن الجهل الفاضح إذا ترك منافع الآخرة لاستيفاء منافعها ، ولا سيما إذا قرنت المنافع بعقاب الآخرة .

## الإيضاح

( وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى ) أى وما أعطيتم أيها الناس من شئ من الأموال والأولاد ، فإنما هو متاع تتمتعون به فى الحياة الدنيا وتزبنون به فيها وهو لا يغنى عنكم شيئا عند ربكم ولا يجديكم شروئى تغيير لديه ، وما عنده خير لأهل طاعته وولايته لدوامه وبقائه ، بخلاف ما عندكم فإنه ينفد وينقطع بعد أمد قصير .

ونحو الآية قوله « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ » وقوله : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » ، وفى الحديث : « والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم ، فليُنظر ماذا يرجع إليه ؟ » .

( أفلا تعقلون ؟ ) أى أفلا عقول لكم أيها القوم تتدبرون بها فتعرفون الخير من الشر ، وتختارون لأنفسكم خير المثلتين على شرهما ، وتؤثرون الدائم الذى لا نفاد له على الفانى الذى ينقطع ، ومن أجل هذا أثر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : من أوصى بثلاث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث للمشتغلين بطاعة الله تعالى - وكأنه رحمه الله أخذ من هذه الآية .

ثم أكد ترجيح ما عند الله على ما فى الدنيا من زينة بقوله :

( أفمن وعدناه وعدًا حسنا فهو لآفئ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ ) أى أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا بالجنة وجزيل نعيمها مما لآعين رأيت ولا خطر على قلب بشر ، فأمن بما وعدناه وأطاعنا فاستحق أن ننجز له وعدنا فهو لآفئ حتما وصائر إليه ، كمن متعناه الحياة الدنيا ونسى العمل بما وعدناه به أهل الطاعة ، وأثر لذة عاجلة على لذة آجلة لا تنقد ، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله من المحضرين لعذابة ؟ وأليم عقابه ؟ .

وهذه الآية تبين حال كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وحال كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

وخلاصة ذلك - أفمن سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعده الله فيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا وقد كفر بالله وآياته ثم هو يوم القيامة من المحضرين لعذابه - الجواب الذى لآثنى له - إنهما لا يستويان فى نظر العقل الزجيج ؟ ! .

وتلخيص المعنى : إنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا قيل لهم : لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقضى بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف وبعد هذه اللذة فيها يحصل العقاب الدائم .

وجاء الكلام بأسلوب الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ  
الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا  
تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم  
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ  
يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ  
فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ  
مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) :

### شرح المفردات

حق : أى وجب وثبت ، والقول . أى مدلول القول ومقتضاه وهو قوله : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» والغواية : الضلال والفعل غوى يغوى كضرب يضرب ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يجيبوا ، عميت : أى خفيت ؛ والأنباء : الحجج التى تنجيهم ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه - يكون وبالاً على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب - أردف ذلك ببيان ما يحصل فى هذا اليوم من الإهانة والتفريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون فى الجواب عنها ويشدد عليهم الخطب حين لا يجدون مخلصاً ومعدرة تبررهم ما كانوا يقتربون فيسألهم أولاً عن الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من أصنام وأوثان ، هل ينصرونهم أو ينتصرون ، ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم رداً ، ثم يسألهم عما أجابوا به الرسل حين دعواهم إلى الإيمان برهم ، فتخفى عليهم الحجج التى

تنجيهم من العذاب الذي لا مفر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقيه من حجة لهول الموقف واشتداد الخطب ، ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين برهم الذين عملوا صالح الأعمال ، وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

### الإيضاح

( ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ ) أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى رب العزة هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدون عن سبيل الله فيقول لهم : أين شركائي من الملائكة والجن والكواكب والأصنام الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم لي شركاء - ليخلصوكم من هذا الذي نزل بكم من العذاب .

وهذا السؤال للإهانة والتحقير ، لأنهم عرفوا بطلان ما كانوا يفعلون .

ونحو الآية قوله « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

ثم ذكر جواب هؤلاء الرؤساء الدعاة إلى الضلال فقال :

( قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويانا كما غوينا ) أي قال رموس الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله « لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » فدخلوا النار : ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم ، أغويانا باختيارهم كما غوينا نحن كذلك ، ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإجاء - فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .

وخلاصة ذلك : إن تبعة غيِّهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نأجِّهم إلى ذلك ، بل كان مناجرد الوسوسة فحسب ، فإن كان تسويلنا لهم داعياً إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع من الأدلة العقلية ، وبعث إليهم من الرسل ، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر داعياً إلى الإيمان .

ونحو ذلك قوله حكاية عن الشيطان « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » وقوله لابليس « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » فقله : إلامن اتبعك يدل على أن ذلك الاتباع من قبل أنفسهم ، لامن إلقاء الشيطان إلى ذلك .

ثم زاد الجملة الأولى تأكيداً بقوله :

( تَبَرُّأْنَا إِلَيْكَ ) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي اتباعاً لهوى أنفسهم ، فلا لوم علينا في الحقيقة بسببهم .

ونحو الآية قوله « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » .

ثم ذكر ما هو كالعلة لنفي الشبهة عنهم فقال :

( مَا كَانُوا يَأْنَا يَعْبُدُونَ ) أي هم ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم .

ثم طُلب إليهم دعاء الشركاء توبيخاً لهم وتنبهاً بهم فقال :

( وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ) أي وقيل للمشركين بالله الآلهة والأنناد في الدنيا : ادعوا آلهتكم الذين زعتم جهلاً منكم شركتهم لله ، ليدفعوا العذاب عنكم ، فدعاهم لفرط الخيرة وغلبة الدهشة فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الإجابة

والمقصود من طلب ذلك منهم فضيحتهم على رؤوس الأشهاد بدعاء من لا نفع له ولا فائدة منه .

ثم بين حالهم حينئذ وتمنيهم أن لو كانوا وفقوا في الدنيا إلى سلوك طريق الهدى والرشاد فقال :

( ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ) أى وأيقن الداعون والمدعوون أنهم صائرُونَ إلى النار لا محالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين في الدنيا .

ونحو الآية قوله « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » .

وبعد أن سئلوا عن إشراكهم بالله توبيخاً لهم ، سئلوا عن تكذيبهم للأنبياء كما أشار إلى ذلك بقوله :

( ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟ ) أى ويوم ينادى المشركين ربهم وقد برز الناس في صعيد واحد ، منهم المطيع ومنهم العاصي ، وقد أخذ بأنفاسهم الزحام وترا كبت الأقدام على الأقدام ، فيقول لهم : ماذا أجبتم المرسلين فيما أرسلناهم به إليكم من دعائكم إلى التوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام ؟ .

ثم بين أنهم لا يجارون جواباً ، ولا يجحدون من الحجج ما يدافعون به عن أنفسهم فقال :

( فعميت عليهم الأنبياء يومئذ ) أى فحقيمت عليهم الحجج ولم يجدوا معذرة يجيبون بها ، فلم يكن لهم إلا السكوت جواباً ، ثم ذكر أنه تخفى عليهم كل طرق العلم التي كانت تجديهم في الدنيا فقال :

( فهم لا يتساءلون ) أى فلا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات لما اعتراهم من الدهشة وعظيم الهول ، ولتساويهم جميعاً في عمى الأنبياء عليهم والعجز عن الجواب .

وإذا كان الأنبياء لهول ذلك اليوم يتعمعون في الجواب عن مثل ذلك السؤال ويفوضون الأمر إلى علم الله كما قال «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فما ظنك بهؤلاء الضلال؟

وبعد أن ذكر حال المعذبين من الكفار ومايجرى عليهم من التوبيخ والإهانة أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيباً في التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال :

(فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلاحين) أى فأما من تاب من المشركين ، وراجع الحق ، وأخلص لله بالألوهة ، وأفرد له العبادة ، وصدق نبيه ، وعمل بما أمره الله في كتابه على لسان نبيه ، فهو من الفائزين الذين أدرکوا طلبتهم وغازوا بجنات النعيم خالدين فيها أبداً .

وقد تقدم أن ذكرنا في كثير من المواضع أن (عسى) يراد بها في الكتاب الكريم الإعداد وتوقع حصول ما بعدها من الفوز والنجاح لما طلبوا .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

### شرح المفردات

الخيرة والتخير: الاختيار باصطقاء بعض الأشياء وترك بعض ، سبحانه الله : أى تنزيها لله أن ينازعه أحد في الاختيار ، تكن : أى تخفى ، ويعلنون : أى يظهرون ، الحكم : القضاء النافذ في كل شيء دون مشاركة غيره فيه .



## المعنى الجملى

بعد أن ونجّوهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكماً بهم وتقريعاً لهم - أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه واصطفاهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفاءه على غيره من حق الله لا من حقكم أنتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتموهم للعبادة والشفاعة ، فما أنتم إلا جهال ضلال .

## الإيضاح

( وربك يخلق ما يشاء ويختار ) أى وربك يخلق ما يشاء خلقه ، وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفى ما يريد أن يصطفيه ويختاره ، فيختار أقواماً لأداء الرسالة وهداية الخلق وإصلاح ما فسد من نظم العالم ، ويميز بعض مخلوقاته عن بعض ويفضله بما شاء ، ويجعله مقدماً عنده ، وليس لهم إلا اتباع ما اصطفاه ، وهو لم يصطف شركاءهم الذين اختاروهم للعبادة والشفاعة ، فها هم إلا فى ضلال مبين ، صدوا عن عمل ما يجب عليهم فعله طاعة لله ورسوله ، وتصدّوا لما ليس من حقهم أن يفعلوه بحال .

ونحو الآية قوله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وقال الشاعر :

العبد ذو خيبر ، والرب ذو قدر      والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا      وفى اختيار سواه اللوم والشوم

وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمراً قال « اللهم خرنى واخترلى » وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه . »

ويستحسن ألا يقدم أحد على أمر من الأمور حتى يسأل الله الخيرة في ذلك ، بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الركعة الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

وعن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به ، قال : ويسمى حاجته .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

( ما كان لهم الخيرة ) أي ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ، وله الخيرة عليهم ، فله أن يرسل من يشاء رسولا على حسب ما يعلمه من الحكمة والمصلحة دون أن يكون ذلك منوطاً بمال أو جاه كما خيل إلى بعض المشركين فقالوا « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَبْرِ يَتَّبِنُ عَظِيمٌ » .

ثم نزه سبحانه نفسه أن ينازعه في سلطانه أحد فقال :

( سبحانه الله وتعالى عما يشركون ) أي تنزيها له وعلوا عن إشراك المشركين ، فليس لأحد أن ينازع اختياره أو يزاوجه فيه ، لعلمه باستعداد خلقه وصلاحياتهم للاصطفاء ، فإذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدي أحداً ممن يحب ، أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظامهم قال الله لهم : ليس لكم من الأمر شيء ، فلا النبي صلى الله عليه وسلم بقادر على هدى عمه ، ولا أهل مكة يصلون إلى أن تكون الرسالة في عظامهم .

ثم بين أن اختياره تعالى مبنى على العلم الصحيح لا اختيارهم فقال :  
 ( وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ) أى إن اختياره من يختار منهم  
 للإيمان به مبنى على علم منه بسرائر أمورهم وبواديها ، فيختار للخير أهله فيوقعهم له ،  
 ويولى الشر أهله ويخلفهم وإياه .  
 ونحو الآية قوله «سَاءَ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ  
 بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ» .  
 ولما كان علمه بذلك جاء من كونه إلهاً واحداً فرداً صمداً ، وكان غيره لا يعلم من  
 من علمه إلا ما علمه قال :  
 ( وهو الله لا إله إلا هو ) أى وهو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ولا يحيط  
 الواصفون بكنهه وعظمته ، وهو العليم بكل شئ ، القادر على كل شئ .  
 ثم ذكر بعض صفات كماله فقال :  
 ( له الحمد فى الأولى والآخرة ) أى هو المحمود فى جميع ما يفعله فى الدنيا والآخرة ،  
 لأنه المعطى لجميع النعم عاجلاً وآجلاً .  
 ( وله الحكم ) النافذ فى كل شئ ، فلا معقب لحكمه ، وهو القاهر فوق  
 عباده ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .  
 ( وإليه ترجعون ) يوم القيامة فيجزى كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً ،  
 ولا يخفى عليه منهم خافية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
 مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ  
 اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ  
 بَلْمِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ  
 وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)

## شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبروني ، والسرمد : الدائم المتصل ، قال طرفة :  
 العمرك ما أمرى على بَعْمَة نهارى ولا ليلى على بسرمد  
 تسكنون فيه : أى تستقرون فيه من متاعب الأعمال .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم ، وتفضل به من  
 اللذن - أردف هذا بتفصيل ما يجب أن يحمد عليه منها ولا يقدر عليها سواه .

## الإيضاح

( قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم  
 بضياء ) أى قل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله : أيها القوم أخبروني إن جعل الله  
 عليكم الليل دائماً لانهارله يتبعه إلى يوم القيامة ، أى معبود غير الله يأتىكم بضياء النهار  
 فتستضيئون به ؟

وقى هذا الأسلوب من التبكيت والتفريع والإلزام ما لا يخفى .

( أفلا تسمعون ؟ ) ما يقال لكم سماع تدبر وتفكر فتمعظوا وتعلموا أن ربكم هو  
 الذى يأتى بالليل ويزيل النهار إذا شاء ، وإذا أراد أتى بالنهار وأذهب الليل ، ولا يقدر  
 على ذلك سواه .

( قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله  
 يأتىكم ليليل تسكنون فيه ؟ ) أى أخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائماً لا ليل معه  
 أبداً إلى يوم القيامة ، أى المعبودات غير الله الذى له عبادة كل شىء يأتىكم ليليل  
 تستقرون فيه وتهذبون ؟

(أفلا تبصرون؟) الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة السكاملة ، فتعلموا بذلك أن العبادة لاتصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره ، ومن له القدرة التي خالف بها بين الليل والنهار .

ثم بين أن المخالفة بينهما من فضله تعالى ورحمته فقال :

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ) أى ومن رحمته بكم أيها الناس جعل لكم الليل والنهار ، وخالف بينهما ، فجعل الليل ظلاما لتستقروا فيه راحة لأبدانكم من تعب التصرف نهارا في شئونكم المختلفة ، وجعل النهار ضياء لتتصرفوا فيه بأبصاركم لمعيشكم وابتغاء رزقه الذى قسمه بينكم بفضله .

(ولعلمكم تشكرون ) أى ولتستعدوا لشكره على إنعامه عليكم ، وتخلصوا له الحمد ، لأنه لم يشركه فى إنعامه عليكم شريك ، ومن ثم ينبغى ألا يكون له شريك يُحمد .

والخلاصة : إن الليل والنهار نعمتان تتعاقبان على مر الزمان ، والمرء فى حاجة إليهما ، إذ لاغنى له عن الكدح فى الحياة لتحصيل قوته ، ولا يتسنى له ذلك على الوجه المرضي لولا ضوء النهار ، كما لا يكمل له السعى على الرزق إلا بعد الراحة والسكون بالليل ، ولا يقدر على شيء من ذلك إلا الله الواحد القهار .

وجاء تذييل الآيتين بقوله ( أفلا تسمعون ؟ ) ، ( أفلا تبصرون ؟ ) لبيان أنهم لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤)  
وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ  
وَوَصَّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) .

## شرح المفردات

ونزعنا : أى أحضرنا من قولهم : نزع فلان بحجة كذا إذا أحضرها وأخرجها ، والشهيد : هو نبي الأمة يشهد عليها بما أجابته حين أرسل إليها ، وضل : أى غاب .

## المعنى الجملى

بعد أن وضح المشركين أولاً على فساد رأيهم فى اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله - عاد إلى تقريرهم وتبكيثهم ثانياً ببيان أن إشرائهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن محض الهوى كما يرشد إلى ذلك قوله ( قل هاتوا برهانكم )

## الإيضاح

( ويوم يناديهم فيقول أين شركائ الذين كنتم تزعمون ) أى ويوم ينادى ربك - أيها الرسول - هؤلاء المشركين ، فيقول لهم : أين شركائ الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائ ليخلصوكم مما أتم فيه .

وهذا النداء للتوبيخ والتقريع على رموس الأَشهاد على عبادة غير الله ، للشعار بأنه لا شئ أجلب لغضبه تعالى من الإشراف به ، كما أنه لا شئ أدخل فى مرضاته من توحيد عذ وجل .

( ونزعنا من كل أمة شهيداً ) أى وأحضرنا من كل أمة شهيداً وهو نبيها الذى يشهد عليها بما أجابته أمته فيما آتاهم به عن الله برساليته .

ونحو الآية قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً » .

وهذا فى موقف من مواقف القيامة ، وفى موقف آخر يكون الشهداء هم الملائكة

كما قال تعالى : « وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

ثم بين ما يطلب منهم بعد هذه الشهادة فقال :

( فقلنا هاتوا برهانكم ) على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء مع إعدار الرسل إليكم ، وإقامة الحجج عليكم ، فلم يحيروا جوابا ، وأيقنوا حينئذ بعذاب دائم ، ونار تتلظى ، لا يصلها إلا الأشقي الذى كذب وتولى .

وحينئذ يستبين لهم خطأ ما كانوا يفعلون كما قال :

( فعلموا أن الحق لله ) أى فعلوا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم ، وأن خبره هو الصادق ، وأنه لا يشركه فى الألوهية شئ .

( وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى وغاب عنهم ما كانوا يتخرون به فى الدنيا ويكذبون به على ربهم من الأباطيل والأضاليل .

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) .

## شرح المفردات

فبغى عليهم : أى تكبر وتجبر ، والكنز: المال المدفون فى باطن الأرض ، والمراد به هنا المال المدخر ، ومفاتيحه : أى خزائنه واحداها مفتاح ( بفتح الميم ) وتنوء : من نام به الحمل ينوء : إذا أثقله حتى أماله . قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فلأيا قيامها وتمشى الهوينى عن قريب فتبهر

والعصبة : الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض بلا تعيين عدد خاص ، والقوة : الشدة ، لاتفرح : أى لاتبسط وتمسك بالدنيا ولذاتها حتى تتلى عن الآخرة ، قال يهس العذرى :

ولست بمفراح إذا الدهر سرى ولا جازع من صرفه المتقلب

والدار الآخرة : أى ثواب الله بإنفاق المال فيما يوصل إلى مرضاته ، على علم عندى : أى على حسن التصرف فى المتاجر واكتساب الأموال .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حديث أهل الضلالة وما يلقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رؤوس الأشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم . أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف ، وزلزلت به الأرض ، وهوت من تحتة ، ثم أصبح مثلاً يضرب للناس فى ظلمه وعتوه ، ويستبين لهم من سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة . والندم على ما فعلوا :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مهتفيه وخيم



## الإيضاح

(إن قارون كان من قوم موسى) أى إنه كان من بنى إسرائيل ، لأنه ابن عم موسى ، فموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام ، وقارون بن يضر بن قاهث الخ .

وكان يسمى النور لحسن صورته ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، وأقرأهم لها ، لكنه نافق كما نافق السامرى وقال : إذا كانت النبوة لموسى ، والمذبح والقربان لهرون ، فما لى إذا ؟

(فبغى عليهم) أى تجاوز الحد فى احتقارهم . والقربة كثيراً ما تدعو إلى البغى ثم ذكر سبب بغيه وعقوبه بقوله :

(وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى وأعطيناه المال المذخور الذى يشغل حمل مفاتيح خزائنه على العدد الكثير من الأقوياء من الناس . روى عن ابن عباس أن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلاً من الأقوياء ، وكانت أربع مائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف ، ولا شك أن مثل هذا التحديد يحتاج إلى سند قوى يعسر الوصول إليه ، ومثل هذا الأسلوب يدل على إرادة الكثرة دون تحديد شىء معين .

وبعد أن ذكر بغيه ذكر وقته فقال :

(إذ قال له قومه لا تفرح) أى إنه أظهر التفاخر والفرح بما أوتي حين قال له قومه من بنى إسرائيل : لا تظهر الفرح والبطر بكثرة مالك ، فإن ذلك يجعلك تتكالب على جمع حطام الدنيا ، وتلهى عن شئون الآخرة ، وفعل ما يرضى ربك . ثم علل النهى عن الفرح بكونه مانعاً محبة الله فقال :

(إن الله لا يحب الفرحين) أى إنه تعالى لا يكرم الفرحين بزخارف الدنيا ولا يقرهم من جواره ، بل يبغضهم ويبعدهم من حضرته .

وأثر عن بعضهم أنه قال : لا يفرح بالدينيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، أما من يعلم أنه سيفارقها عن قريب فلا يفرح بها ، وما أحسن ما قال النبي :  
 أشدُّ الغم عندى فى سرورٍ تيقن عنه صاحبه انتقالا  
 وأحسن منه وأوجز قوله سبحانه : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَعْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

ثم نصحوه بعدة نصائح فقالوا :

(١) ( وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ) أى واستعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : « اغتشم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

(٢) ( ولا تنس نصيبك من الدنيا ) أى ولا تترك حظك من لذات الدنيا فى ما كلفها ، ومشاربها وملابسها ؛ فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، وروى عن ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وعن الحسن : « قدّم الفضل وأمسك ما يبلغ »  
 (٣) ( وأحسن كما أحسن الله إليك ) أى وأحسن إلى خلقه ، كما أحسن هو إليك فيما أنعم به عليك ، فأعِن خلقه بمالك وجاهك ، وطلاقة وجهك ، وحسن لقائهم ، والثناء عليهم فى غيبتهم .

(٤) ( ولا تبغ الفساد فى الأرض ) أى ولا تصرف همك بما أنت فيه إلى الفساد فى الأرض ، والإساءة إلى خلق الله .  
 ثم أتبعوا هذه المواعظ بعلتها فقالوا :

( إن الله لا يحب المفسدين ) أى إن الله لا يكرم المفسدين ، بل يهينهم ويبيدهم من حظيرة قربه ، ونيل مودته ورحمته .

ثم بين أنه مع كل هذه المواظب أبى وزاد في كفران النعمة فقال :  
 ( قال إنما أوتيته على علم عندي ) أى قال قارون لمن وعظوه : إنما أوتيت هذه  
 الكنوز لفضل علم عندي ، علمه الله مني ، فرضى بذلك عني ، وفضلني بهذا  
 المال عليكم .

وتلخيص ذلك : إني إنما أعطيته لعلم الله أني له أهل .  
 ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ  
 إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ » .

ثم رد الله عليه مقاله بقوله :

( أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر  
 جمعاً ) أى أنسى ولم يعلم ، حين زعم أنه أوتى الكنوز لفضل علم عنده ، فاستحق  
 بذلك أن يؤتى ما أوتى ؟ أن الله قد أهلك من قبله من الأمم ، من هم أشد منه بطشاً ،  
 وأكثر جمعاً للأموال ؟ ولو كان الله يؤتى الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير  
 عنده ورضاه عنه ، لم يهلك من أهلك من أرباب الأموال ، الذين كانوا أكثر منه  
 مالا ، لأن من يرضى الله عنه ، فحال أن يهلكه وهو عنه راض ، وإنما يهلك من  
 كان عليه ساخطاً ، ألم يشاهد فرعون وهو في أبهة ملكه ، وحقق أمره يوم هلكه .  
 وفي هذا الأسلوب تعجيب من حاله ، وتوبيخ له على اغتراره بقوته وكثرة ماله ،  
 مع علمه بذلك .

و بعد أن هدده سبحانه بذكر إهلاك من قبله من أضرابه في الدنيا - أردف  
 ذلك بتهديد المجرمين كافة بما هو أشد من عذاب الآخرة وهو عدم سؤالهم عن ذنوبهم ،  
 إذ أنه يؤذن بشدة الغضب عليهم ، والإيقاع بهم للاحالة ، فقال : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ  
 ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » أى إنه تعالى حين إرادة عقابهم لا يسألهم عن مقدار ذنوبهم

ولا عن كنهمها ، لأنه عليم بها ، ولا يعاتبهم عليها كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِنْ مُعْتَبِينَ »  
وقال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » .

ونحو الآية قوله « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ » .

وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تقرير وإهانة ، كما جاء في قوله : « فَوَرَّبُّكَ  
لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ  
لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ  
وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا  
الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ . فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ  
يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا  
مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ  
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الْكَافِرُونَ (٨٢) .

### شرح المفردات

الخط : البخت والنصيب ، العلم : هو علم الدين ، وما ينبغي أن يكون عليه  
المتقون ، ويل : أصلها الدعاء بالهلاك ، ثم استعملت في الزجر عن ترك ما لا يرتضى ،  
وخسف المكان : أى غار في الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا : غاب به فيها  
كما قال : « كَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وفئة : أى جماعة من المنتصرين ؛

أى الممتنعين عن عذابه ، يقال : نصره من عدوه فانصر : أى منعه منه فامتنع ،  
وى : كلمة يراد بها التندم والتعجب مما حصل ، يقدر : أى يضيق .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بنى قارون وعتوه وجبروته ، وكثرة ما أوتيته من المال  
الذى تنوء به العصابة أولو القوة - أردف ذلك بتفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه ،  
فذكر أنه خرج على قومه ، وهو فى أبهى حُلْيَةٍ وحُلَّة ، والعدد العديد من أعوانه  
وحشمه ، قصداً للتماعى على العشيرة ، وأبناء البلاد ، وفى ذلك كسر للقلوب ، وإذلال  
للقوس ، وتفريق للسكامة ، فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون فى  
الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتقرىقهم شذرَ مذَر ، وقد غرت هذه المظاهر بعض  
الجهال الذين لا هم لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنوا أن يكون لهم مثلها ، فرد  
عليهم من وفقهم الله لهدايته بأن ما عنده من النعم لمن اتقى خير مما أوتى قارون  
ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصى ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل  
إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معينا ينصره ويدفع العذاب عنه ،  
وقد انقلب حال التمتنين المعجبين بحاله إلى متعجبين مما حل به ، قائلين : إن الله  
يسط الرزق لمن يشاء من عباده ؛ لا لفضل منزلته عنده وكرامته لديه كما يسط لقارون  
ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفصل علينا  
فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمن لخسف بنا الأرض .

### الإيضاح

( فخرج على قومه فى زينته ) أى فخرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ،  
وتحمل باهر من سراكب وخدم وحشم ، يريد بذلك التعالى على الناس ، وإظهار  
المنظمة ، وذلك من الصفات البغيضة ، والافتخار الممقوت ، والخيلاء المذمومة لدى

عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيّان المجتمع ، وتفسد نظمه ، وتفرق شمل الأمة ، وتقسّمها طبقات ، وفي ذلك تمّادها ، وطمع المدو في امتلاك ناصيتها .

وفي هذا تحذير لنا أيّما تحذير ، فكثير من يظهرون النعم ، إنّما يريدون التعلّی والتفاخر ، وهم من يقيم الزينات ، أو يصنع اللآلئ لمُرْس أو ماتم ، لا يريد بذلك إلا إظهار ثرائه ، وسعة ماله بين عشيرته وبنى جلدته ، فيكون قارون زمانه ، وتكون عاقبته الخسف لما أوتيّه من مال ، ويذهب الله ثراه ، ويحصله عبرة لمن اعتبر .

فالكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعلّی ليس وبالها في الآخرة خسب ، بل يحصل شؤمهما في الدنيا قبل الآخرة ، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم .

وقد روى عن مفسري السلف في زينة قارون ما يجعلنا نقف أمامه موقف الخذر ، ويجعلنا نعتقد أن الإسرائيليات سداه ولحمته ، فمن ذلك ما روى عن قتادة قال : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه ، على أربعة آلاف دابة ، عليهم ثياب حرّ منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرجوان . وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول ، وعليهم الثياب الأرجوانية ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض ، عليهم الخلى والثياب الحرّ يركبن البغال الشهب .

وحين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين :

( ١ ) قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ) أى قال من كان همه الدنيا وزينتها : يا ليت لنا من الأموال والتعاضد مثل ما لقارون منها ، حتى نتم عيشاً ، ونتمتع بزخارف الحياة ، كما يتمتع .

وإن مثل هذا التمني ليشاهد كل يوم ، وفي كل بلد ، وفي كل قرية ، فترى الراحل والشاب ، والمرأة والفتاة ، يتمنى كل منهم أن يكون له مثل ما أوتي فلان

وفلانة من ثوب جميل ، أودابة فارهة ، أومزرعة يحمده غلتها ، أوقصر مشيد ،  
أونحو ذلك .

ثم عللوا تمنيمهم وأكدوه بقولهم :

( إنه لذو حظ عظيم ) أى إن الله قد تفضل عليه ، وآتاه من بسطة الرزق حظاً  
عظيماً ونصيباً كبيراً يغبط عليه .

والقائلون هذه المقالة : إما جماعة من المؤمنين قالوا ذلك جرياً على الجيلة البشرية  
من الرغبة فى السعة واليسار ، وإما عصابة من الكفار والمنافقين تمنوا مثل ماله ، ولم  
يتمنوا زوال نعمته ، ومثل هذا لا ضرر فيه .

( ٢ ) ( وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ) أى  
وقال الذين أوتوا العلم بما أعد الله لعباده فى الآخرة وصدقوا به ردّاً على أولئك المتمنين :  
تبتاً لكم وخسراً ، كيف تتغالون فى طلب الدنيا ، ويسيل لعابكم عليها ، وما عند الله  
من ثواب فى الآخرة لمن صدق به ، وآمن برسله ، وعمل صالح الأعمال خير مما تمننون ،  
فإن هذا باق ، وذلك فان ، وهذا خالص مما يشوبه وينقصه من الأكدار ، وذلك  
مشوب بالأحزان والمنغصات .

ثم بين من يعمل بهذه النصيحة فقال :

( ولا يلقاها إلا الصابرون ) أى ولا يتبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من  
صبر على أداء الطاعات ، واجتناب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل قسم من  
المنافع والمضار ، وأفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه والمجتمع ، وكان قدوة صالحة  
فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، ببذل كل ما فيه نعمها وقوتها ، وإعلاء  
شأنها ، وبذا ينال حسن الأحداث بين الناس ، ويلقى المثوبة من ربه .

ثم ذكر ما آل إليه بطره وأشره من وبال ونكال فقال :  
( نخسفنا به وبداره الأرض ) أى فزلزلت به الأرض وابتلته جزاء بطره وعتوه ،

وفي هذا غير من اعتبر ، فبترك تعالى والتعالى في الزينة ، لئلا يخسف الله به  
وعاله الأرض .

وقد غفل كثير من الناس عن المقصد من المال ، فأفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة ،  
فضاعت دورهم وأموالهم ، وأصبحت ملكا لغيرهم ، وهذا هو الخسف العظيم ؛ وما خسف  
قارون بشيء إذا قيس بهذا ، فإن الخسف الآن خسف الأمم ، لا خسف الأفراد ،  
فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيداً له وضحية مطامعه ،  
وخسف أمة أدهى من خسف فرد ، فليخسف الفرد ، ولتبقى الأمة ، وهكذا دخلت  
البلاد تباعاً في ملك الغاصب ، واحدة إثر أخرى ، ولم يبق منها إلا من رحم الله ،  
وما ذاك إلا جهلها لدينها ، وعدم اتباعها أحكامها ، وغفلتها عن مقاصدها .

ثم بين أنه لم يجد له شقيقاً ولا نصيراً يدفع عنه العذاب حينئذ فقال :  
( فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ) أى ما أغنى  
عنه ماله ، ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله ولا نكاله ، ولا استطاع  
أن ينتصر لنفسه .

وقصارى ذلك : إنه لا ناصر له من غيره ولا من نفسه ، فكيف يكون للأمة  
العاقلة عن أوامر دينها ، الجاهلة بمقاصد شريعتهما في إنفاق الأموال أن تجد مناصراً من  
خراب الديار ، وإضاعة الجهد الطارف والتالد ، وأن تقع فريسة للغاصبين ، الذين  
يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة ، وقد كانت ذلك جزاء وفاقا ، لجهلها وسوء  
تصرفها ، وظلمها لأنفسها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وهكذا حال من تصرف في ماله  
تصرف السفهاء ، وركب رأسه ، وصار يبعثه يمنة ويسرة ، فإنه سيندم ولات  
ساعة مندم .

وقد أبان الكتاب أن النصر للصابرين ، فهو أثر لازم للصبر على حفظ المال ،  
وحفظ الشهوات والعقول ، وكل الفضائل التي حث عليها الدين ، وسلك سبيلها  
السلف الصالح .



وقد حكى المفسرون في أسباب الخسف أمورا كثيرة هي غاية في الغرابة يبعد أن تصديقها العقول ، ومن ثم قال الرازي : إنها مضطربة متعارضة ، فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب اهـ . ولما شاهد قوم قارون ما نزل به من العذاب ، صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى ، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله وبما قسمه ، وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبيائه ورسله ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وي كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى فلما خسف الله بقارون الأرض ؛ أصبح قومه يقولون : إن كثرة المال والتمتع بزخارف الدنيا ، لاتدل على رضا الله عن صاحبه ؛ فالله يعطى ويمنع ، ويوسع ويضيق ، ويرفع ويخفض ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، لا معقب لحكمه . وقد روى عن ابن مسعود عن قروعا « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » .

ولما لاح لهم من واقعة أمره أن الرزق بيد الله يصرفه كيف يشاء ، أتبعوه بما يدل على أنهم اعتقدوا أن الله قادر على كل ما يريد من رزق وغيره فقالوا : (لولا أن من الله علينا لخسف بنا) أى لولا لطف الله بنا لخسف بنا كما خسف به ، لأننا وددنا أن نكون مثله . ثم زادوا ما سبق تأكيداً بقولهم : (وى كأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله المكذبون برسله وبما وعدوا به من ثواب الآخرة ، كما كان شأن قارون .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير - أعقب ذلك بذكر محل هذا الجزاء ، وهو الدار الآخرة ؛ وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، بأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ ما يحدث في هذه الدار ؛ جزاء على الأعمال في الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ؛ إلى ما لا يحيط به إلاعلام الغيوب ، فضلاً من الله ورحمة ؛ وجزاء السيئة مثلاً ، لظلم منه بعباده ، وشفقة عليهم .

## الإيضاح

( تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ) أى تلك الدار التى سمعت خبرها ، وبلغك وصفها - نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبراً عن الحق وإعراضاً عنه ، ولا ظلم الناس ومعصية الله .

وثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » . وروى مسلم وأبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » .

وروى أبو هريرة : « أنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان جميلاً ، فقال : يا رسول الله إني رجل حبيب إلى الجمال ؛ وأعطيت منه مائتى ؛ حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل ؛ أفمن ذلك ؟ قال : لا ؛ ولكن المتكبر من بطر الحق وغمط الناس » .

وعن عدى بن حاتم قال : « لما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم أتى إليه وسادة

وجلس على الأرض ؛ فقال : أشهد أنك لا تبني علوا في الأرض ولا فساداً فأسلم .  
أخرجه ابن مردويه .

(والعاقبة للمتقين) أي والعاقبة المحمودة ، وهي الجنة لمن اتقى عذاب الله بعمل الطاعات ، وترك المحرمات ، ولم يكن كفرعون في الاستكبار على الله ، بعدم امتثال أوامره ، والارتداد عن زواجه ، ولا كفارون في إرادة الفساد في الأرض .

ثم بين ما يكون في تلك الدار من جزاء على الأعمال فقال :  
(من جاء بالحسنة فله خير منها) أي من جاء الله يوم القيامة بحسنة فله خير منها ، فهو يضاعفها له أضاعافا مضاعفة تفضلا منه ورحمة .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) أي ومن أتى بسيئة فلا يجزى عليها إلا مثلاً ، وهذا منه سبحانه شفقة وعدل .  
ونحو الآية قوله : « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ » .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدَاةٍ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

## شرح المفردات

فرض عليك : أى أوجب عليك ، ومعاد الرجل : بلده ، لأنه يتصرف في البلاد  
ثم يعود إليه ، ظهيرا : أى معيناً ، هالك : أى معدوم ، وجهه : أى ذاته ، الحكم :  
أى القضاء النافذ .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، وبين بنى قارون واستطالته  
عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه أردف هذا بقصص محمد صلى الله عليه  
وسلم وأصحابه مع قومه ، وإيذائهم إياه ، وإخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه  
إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحها إياها منصوراً ظافراً .

## الإيضاح

( إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ) أى إن الذى أوجب عليك  
العمل بأحكام القرآن وفرائضه - لرادك إلى محل عظيم القدر اعتدته وألفته ، وهو  
مكة ، والمراد بذلك عوده إليها يوم الفتح ، وقد كان للعمود إليها شأن عظيم ، لاستيلاء  
رسول الله عليها عنوة ، وقهره أهلها ، وإظهار عز الإسلام ، وإذلال المشركين .  
وهذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها  
أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً .

روى مقاتل أنه عليه السلام خرج من الغار ( حين الهجرة ) وسار في غير الطريق  
مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالحجفة بين مكة والمدينة ، وعرف  
الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فبذل جبريل عليه  
السلام وقال له : أأشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل :

فإن الله يقول : ( إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ) (١) .  
وهذه إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر .  
ولما قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ( إنك لفي ضلال مبين )  
نزل قوله تعالى :

( قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ) أى قل لمن  
خالقك وكذبك من قومك المشركين ومن تبعهم : ربى أعلم بالمهتدى منى ومنكم ،  
وستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن تكون له العاقبة والنصرة فى  
الدنيا والآخرة ؟ .

ثم ذكره سبحانه نعمه ، ونهاه عن معاونة المشركين ومظاهرتهم فقال :  
( وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ) أى وما كنت  
ترجوأيها الرسول أن ينزل عليك القرآن ، فتعلم أخبار الماضين من قبلك ، وما سيحدث  
من بعدك ، وما فيه من تشريع ، فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ؛ وآداب هى  
منتهى ما تسمو إليه نفوسهم وتطمح إليها عقولهم ؛ ثم تلو ذلك على قومك ، وليكن  
ربك رحيمك فأنزله عليك .

ثم بين ما يجب أن يعمل به كفاء هذه النعم المتظاهرة فقال :  
( فلا تكونن ظهيرا للكافرين ) أى فاحذر ربك على ما أنتم به عليك بإنزاله  
الكتاب إليك ؛ ولا تكونن عوناً لمن كفروا بربك ؛ وليكن فارقيهم ونابذهم .

ثم شدد عزمه وقواه بالأية بمخالفتهم فقال :  
( ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ) أى ولا تبال بهم ؛ ولا تهتم  
بمخالفتهم لك ؛ وصدهم الناس عن طريقك ، فإن الله معك ومؤيدك ؛ ومظهر ما أرسلاك  
به على سائر الأديان .

ثم أمره أن يصدع بالدعوة ؛ ولا يألو جهداً فى تبليغ الرسالة فقال :

( وادع إلى ربك ) أى وبلغ رسالة ربك إلى من أرسلك إليهم ؛ واعبدوا وحده لا شريك له .

( ولا تكونون من المشركين ) أى ولا تترك الدعاء إلى ربك وتبليغ المشركين رسالتك ، فتكون ممن فعل فعل المشركين بمعصية ربه وخلافه أمره .  
ثم فسر هذا وبينه بقوله :

( ولا تدع مع الله إلها آخر ) أى ولا تعبد أيها الرسول مع الله الذى له عبادة كل شيء - معبودا آخر سواه .

ثم علل هذا بقوله :

( لا إله إلا هو ) أى لأنه لا معبود يصلح له العبادة إلا الله ، ونحو الآية قوله :  
« رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .  
ثم بين صفاته فقال :

١ - ( كل شيء هالك إلا وجهه ) أى هو الدائم الباقي الحى القيوم الذى لا يموت إذا ماتت المخلوقات ، كما قال : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها ليبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

٢ - ( له الحكم ) أى له الملك والتصرف والقضاء النافذ فى الخلق .

٣ - ( وإليه ترجعون ) يوم معادكم ، فيجزىكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وصل ربنا على محمد وآله .

## خلاصة ما تحويه السورة الكريمة من الأغراض

- (١) استعلاء فرعون وفساده في الأرض .
- (٢) استضعافه بنى إسرائيل وقتله أبناءهم واستيقاؤه لنساءهم .
- (٣) منتهى تعالى على بنى إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون وجعلهم أمة في أمر الدين والدنيا ووراثتهم أرض الشام .
- (٤) إغراق فرعون وجنوده .
- (٥) إلقاء موسى في اليم ، والتقاط آل فرعون له ، ثم رده إلى أمه .
- (٦) قتل موسى للقطبي ، ثم هربه إلى أرض مدين ، وتزوجه ببنت كاهنها ، وبقاؤه بها عشر سنين .
- (٧) عودة موسى إلى مصر ، ومناجاته ربه .
- (٨) معجزات موسى من المصا واليد البيضاء .
- (٩) طلبه من ربه أن يرسل معه أخاه هرون ليكون له وزيراً وإجابته لى ذلك .
- (١٠) تبليغه رسالة ربه إلى فرعون ، وتكذيب فرعون له ، واستكباره في الأرض بغير الحق .
- (١١) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره عن قصص الماضين ، دون أن يكون حاضراً معهم ، ولا أن يتعلم ذلك من معلم .
- (١٢) إنكار قریش لنبوته ، بعد أن جاءهم بالحق من ربهم ، وقولهم إن ما جاء به سحر مفترى .
- (١٣) إيمان أهل الكتاب بالقرآن وإعطاؤهم أجرهم مرتين .
- (١٤) إثبات أن الهداية بيد الله ، لا بيد رسوله ، فلا يمكنه أن يهتدى من يحب .

(١٥) معاذير قریش فی عدم ایمانهم بالرسول صلی الله علیه وسلم ، ثم دحضها .  
 (١٦) بیان أن الله لا يعذب أمة إلا إذا أرسل إليهم رسولا ، حتى لا يكون لهم حجة على الله .

(١٧) نداء للمشرکین على رموس الأشهاد ، وأمرهم بإحضار شركائهم وندائهم ، ليسألهم عما أجابوا به الرسل ، فلم يستطيعوا لذلك ردا .

(١٨) بیان أن اختيار الرسل لله ، لا للمشرکین ، فهو الذي يصطفى من يشاء لرسالته .

(١٩) التذكير بنعمته على عباده باختلاف الليل والنهار .  
 (٢٠) شهادة الأنبياء على أمهم .

(٢١) ذكر قارون وبغية في الأرض ، ثم خسف الأرض به .  
 (٢٢) بیان أن ثواب الآخرة لا يكون إلا لمن لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد فيها .

(٢٣) مضاعفة الله للحسنات ، وجزاء السيئة بمثلا .  
 (٢٤) الإنباء بالغيب عن نصر الله لرسوله ، وفتح مكة .

(٢٥) بيان أن كل من في الوجود فهو هالك ، إلا الله تبارك وتعالى .

.....

.....

.....



## سورة العنكبوت

هي مكية إلا من أولها إلى قوله : « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » فمدنية ، نزلت بعد سورة الزوم ، وعدة آياتها تسع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر في السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته ، وجعله أهله شيعة ، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتحهم المشركون ، وعذبوهم على الإيمان ، دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل ؛ تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا على الصبر ؛ كما قال : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

(٢) ذكر في السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عودته إلى مصر رسولا نبيا ، ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا وذكر هنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة وإغراق من كذب من قومه .

(٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رموس الأشهاد - وهنا نعى عليهم أيضا وبين أنهم في ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

(٤) هناك قص قصص قارون وفرعون ، وهنا ذكرها أيضا ، وبين علقبة أعمالها .

(٥) ذكر هناك في الخاتمة الإشارة إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ » ، وفي خاتمة هذه أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)  
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ  
(٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤).

### شرح المفردات

الفتنة : الامتحان والاختبار ، ليعلمن الله الذين صدقوا أى ليظهرن صدقهم ،  
السبق : الغوت والمراد به الغوت عن المجازاة ، والسيئات : هى الشرك بالله والمعاصي  
التي يجترحونها ، ساء ما يحكمون : أى قبح حكمهم أنهم يهربون منا .

### المعنى الجلى

بعد أن قال فى أواخر السورة السالفة : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » وكان فى  
الدعاء إليه توقع الطعن والضرب فى الحرب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه  
كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق  
على بعض المؤمنين - أردف ذلك بتوبيخهم إلى أن المؤمنين لا يتبين إيمانهم الحق إلا  
إذا فتنوا .

روى ابن جرير وابن المنذر أن ناساً ممن كانوا بمكة آمنوا فكتب إليهم أصحاب  
رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة لا يقبل منكم إسلام  
حتى تهاجروا ، فخرجوا إلى المدينة فبعضهم المشركون فردهم ففترت فيهم هذه الآيات  
فكتبوا إليهم ، أنزلت فيكم آية كذا وكذا ؟ فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ،  
فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلهم ، فبعضهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم :  
« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ  
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال مقاتل : نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب ، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ : « سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة » وجرع عليه أبواه وامراته فنزلت « ألم أَحْصِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » الآية .

### الإيضاح

( ألم ) تقدم أن قلنا إنه ينطق بالحروف المقطعة في أوائل السور بأسمائها فيقال : ( أَلِف . لَام . مِيم ) .

والحكمة في البداءة بها التنبيه وطلب إصغاء السامعين إلى مايلقى بعدها ، فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدم على المقصود شيئاً غيره ليلفت المخاطب بسببه إليه ، فحينما يكون كلاماً مفهوماً كقول القائل اسمع أو ألقِ بالك إلى ، وحينما يكون في معنى الكلام المفهوم كقولك يا على ، وحينما يكون صوتاً غير مفهوم المعنى كن يصفر خلف إنسان ليلفت إليه .

فالنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان يقط الجنان فهو إنسان يشغله شأن عن شأن فحسن من الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالتنبيهات لا يفهم منها معنى ، لتكون أتم في إفادة التنبيه ، لأنه إذا كان المقدم قولاً مفهوماً فربما ظن السامع أنه هو المقصود ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتاً لا معنى له جزم بأن هناك كلاماً آخر سيرد بعد ، فيقبل إليه تمام الإقبال ، ويرهف السمع إلى ما سيأتي :

وقد ثبت بالاستقراء أن كل سورة في أوائلها حرف التهجى بدأت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن نحو ألم ذلك الكتاب ، المص كتاب أنزل إليك ، يس والقرآن ، ص والقرآن ، ق والقرآن ، حم تنزيل الكتاب — إلا ثلاث سور كهييعص ، ألم أحصب الناس ، ألم غلبت الروم .

وقد حصل التنبية في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ؟ » ، من قِبَل أن تقوى الله أمر عظيم ، ومثلها تحريم ما أحل الله . وقد بدت هذه السورة بالحروف وليس فيها البدء بالقرآن أو الكتاب من قبل أن فيها ذكر جميع التكاليف ، وهي شاقة على النفس ، فحسن البدء بحروف التنبية للإيقاظ إلى ما يليق بعدها :

( أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ) أى أظن الذين نجوا من أصحابك من أذى المشركين أن نتركهم بغير اختبار ولا امتحان بمجرد قولهم : آمنا بك وصدقناك فيما جئتنا به من عند الله ، كلاً لمتحضتهم بشاق التكاليف كالهجرة والجهاد في سبيل الله ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأثابته المصائب في الأنفس والأموال والتمرات ، ليمتاز الخالص من المنافق ، والراسخ في الدين من المتزلزل فيه ، ويجازى كلا على حسب مراتب عمله . ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِيكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » . والخلاصة : أظن الناس أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا دون أن يبتلوا بالقرائن البدنية والمالية كالهجرة من الأوطان والجهاد في سبيل الله ودفع الزكاة للفقراء والمحتاجين وإغاثة البائسين والملهوفين . ثم ذكر ما هو كالتسليية لهم بما نال من قبلهم بالمشاق فقال :

( ولقد فتنا الذين من قبلهم ) أى ولقد اخترنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبنهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ ، فابتلينا بني إسرائيل بفرعون وقومه وأصابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد ، وابتلينا من آمن بعيسى بن كذبه وتولى عنه — لاجرم ليصين أتباعك أذى شديد وجهد عظيم من خالفهم وناصبهم العداء .

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ : « شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ شِدَّةً ، قَتَلْنَا : أَلَا تَسْتَنْصِرُنَا ؟ أَلَا تَدْعُونَا ؟ فَقَالَ : قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمَنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ لَحْمُهُ وَعَظْمُهُ ؛ فَمَا يَصْدهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ؛ وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ؛ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّئِبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » .

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : « دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ ، فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللَّحَافِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدُّهَا عَلَيْكَ ! قَالَ إِنَّا كَذَلِكَ يَضْعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ ، وَيُضْعَفُ لَنَا الْأَجْرُ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ الْأَنْبِيَاءُ ، قُلْتُ : نِمُّ مِنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ الصَّالِحُونَ أَنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَتَلَيَّ بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إِلَّا الْعِبَادَةَ يَجُوبُهَا (يَمْرُقُهَا) وَأَنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرِّخَاءِ » .

وَنَحْوُ الْآيَةِ قَوْلُهُ : « وَكَأَيُّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا » .

( فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) أى وليظهرن الله الصادقين منهم فى إيمانهم من الكاذبين بما يشبه الامتحان والاختبار ، وليجازين كلًا بما يستحق .

وخلاصة ماسلف : أيها الناس لاتظنوا أنى خلقتكم سدى ، بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم وأرق منه فى كل شئونه ، ولا يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل واختباركم من آن إلى آخر ياتزال النوازل والمصائب فى الأنفس والأموال والثمرات ، والتغلب على بعض الشهوات ، وفعل التكليف من الزكاة والصيام والحج ونحوها . فحياتكم حياة جهاد وشقاء ، شتم أو أيتيم .

و بمقدار ماتصبرون على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب ، وتلك سنة الله فيكم وفي الأمم من قبلكم ، وتاريخ الأديان مليء بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسول .

(أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟) أى أيظن هؤلاء الذين يجترحون الإثم والفواحش أن يفوتونا ، فلا تقدر على مجازاتهم ولا يستطيع أن يجرى العدل فيهم وما قضت به سنتنا في الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟ .

قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وعتبة والوليد بن عتبة وعتبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص ابن وائل .

(ساء ما يحكمون) أى بئس حكما يحكمونه هذا الحكم ، وكيف يدور ذلك بخلافهم وإنا لم نخلق الخلق سدى ؛ بل ريناهم وهذبناهم بضروب من التهذيب والعلم ؛ لعلهم يلحون في هذا العالم نور جمالى وجلالى .

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)  
وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَخْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) .

### شرح المفردات

يرجو : أى يطمع ، لقاء الله : أى نيل نوابه وجزائه ، أجل الله : الوقت المضروب للقاءه ، جاهد أى بذل جهده في جهاد حرب أو نفس .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العبد لا يترك في الدنيا سدى وأن من ترك ما كلف به عذب — أردف ذلك ببيان أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع الله عمله ولا يخيب أمله ، ثم ذكر أن طلب ذلك من المكلف ليس انفع يعود إلى الله تعالى فهو غنى عن الناس جميعا ؛ ثم أرشد إلى أن جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ومضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة .

## الإيضاح

( من كان يرجو لقاء الله فإن أجل لآت وهو السميع العليم ) أى من كان يطمع في ثواب الله يوم لقائه فليبادر إلى فعل ما ينفعه وعمل ما يوصله إلى مرضاته ويجنب ما يبعد من سخطه ، فإن أجل الله الذى أجله لبعث خلقه للجزاء لآت لا محالة ، والله هو السميع لأقوال عباده ؛ العليم بمقائدهم وأعمالهم ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، وفي هذا تنبيه إلى تحقق حصول المرجو والخوف وعدا ووعيدا .

ثم بين سبحانه أن التكليف بجهاد النفس وجهاد الحرب ليس انفع يعود إليه ، بل لفائدة المكلف فقال :

( ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين ) أى ومن بذل جهده في جهاد عدو أو حرب نفس فإنما يجاهد لنفع نفسه ، لأنه إنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده ، وهر با من عقابه ، وليس بالله إلى فعله حاجة ، فهو غنى عن جميع خلقه ، له الملك وله الأمر يفعل ما يشاء .

ونحو الآية : « مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ » .

ثم بين بالتفصيل جزاء المطيع فقال :

( والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن

الذى كانوا يعملون ) أى والذين آمنوا بالله ورسوله وصح إيمانهم حين ابتلاهم فلم يرتدوا عنه بأذى المشركين لهم وعملوا صالح الأعمال ، فأدوا فرائضه وقاموا بها حق القيام ، فواسوا الناس الملهوف ، وأغاثوا المظلوم ، وقدّموا لوطنهم ما هو شديد الحاجة إليه ، فأرأوا صدقه ، وسدّوا ثغره ، وكانوا للمؤمنين سنداً ومعيناً ، حتى يصيروا كالبنين يشد بعضه بعضاً — لنكفرن عنهم سيئاتهم التى فرطت منهم فى شركهم أو صدرت منهم لمسا فى إيمانهم وندموا على ما اجترحوه منها ولتثيبنهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون ، فنقبل القليل من الحسنات ، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ونجزى على السيئة بمثلها ؛ أو نغفر عنها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ رَبِّ جَعَلْتُمْ فَأَنبِتْكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن العمل الصالح يكفر السيئات ويضاعف الحسنات — أعقب ذلك بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما ، لأنهما سبب وجوده ، فلهما عليه الإحسان والطاعة . فالإحسان إلى الوالد بالإتفاق ، وإلى الوالدة بالإشفاق ، إلا إذا حرضاه على الشرك وأمرأه بالمطاعة على دينهما إذا كانا مشركين ، فإنه لا يعطيهما فى ذلك ؛ ثم بين أن من يعمل الصالحات يدخله الله فى زمرة الأنبياء والأولياء ويؤتيه من الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل مألوفى هؤلاء .



روى الترمذى «أن الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه حنيفة بنت أبي سفيان لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأمه ، قالت له : ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتغير بذلك أبد الدهر يقال : يا قاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني ؛ فكلى إن شئت وإن شئت فلا تأكلى ، فلما أيست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية ، آمراً بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ؛ وعدم طاعتهما في الشرك .»

### الإيضاح

( ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ) أى وأمرناه بتعهدهما والبر بهما ، والإحسان إليهما ، كما قال في آية أخرى : « وَفَضَى رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا .»

( وإن جاهدك تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ) أى وإن خرضاك على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك أن تفعل ذلك ، وجاء في الحديث الصحيح « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .»

ومعنى قوله : ( ما ليس لك به علم ) أنه لا علم لك بإلهيته ، وإذا كان لا يجوز أن يتبع فيما لا يعلم صحته فأحر به ألا يتبع فيما يعلم بطلانه .

ثم توعد من يفعل ذلك بقوله :

( إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ) أى مرجعكم جميعاً إلى يوم القيامة ،

مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ وَمَنْ كَفَرَ ، وَمَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ ، وَمَنْ عَقَّ ، ثُمَّ أُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ،  
الْمُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ .

( وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ) أَيْ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ  
وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ وَعَمِلُوا مَا يَصْلَحُ نَفْسَهُمْ ، وَيَرْكَبُ أَرْوَاحَهُمْ وَيُطَهِّرُهَا ، لَنُدْخِلَنَّهُمْ  
فِي زَمْرَةِ الصَّالِحِينَ ، وَنَجْعَلُهُمْ فِي عِدَادِهِمْ ، فَندْخِلُهُم الْجَنَّةَ مَعَهُمْ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ  
كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ  
اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ  
الْمُنَافِقِينَ (١١) .

### المعنى الجملى

الناس في الدين أقسام ثلاثة : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر مجاهر  
بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يظهر الإيمان بلسانه ، ويبطن الكفر في فؤاده ،  
وقد بين القسمين الأولين بقوله : ( فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين )  
وبين أحوالهما بقوله : ( أم حسب الذين يعملون السيئات ) إلى قوله : ( والذين آمنوا  
وعملوا الصالحات ) ، ثم أورد ذلك بذكر القسم الثالث بقوله : ( ومن الناس من  
يقول آمنا بالله ) الخ .

روى أن الآية نزلت في عياش بن أبى ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أودى وضرب  
فارتد ، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك  
دهرا وحسن إسلامه .

## الإيضاح

(ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) أى ومن الناس فريق يقول : آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته ، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه ، جعل فتنة الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة ، فارتد عن إيمانه ، ورجع إلى كفره ، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى ، ويجعل قلبه مطمئناً بالإيمان ، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، وعذاب الناس له دافع ، وعذاب الله ماله من دافع ، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده العقاب الأليم ، والمشقة إذا كانت مستتعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذاباً .

قال الزجاج : ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله . أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وأبو يعلى عن أنس قال : قال صلى الله عليه وسلم : « لقد أؤذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت في الله ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثة ، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال » .

وخلاصة ذلك : إن من الناس من يدعون الإيمان بألسنتهم ، فإذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى منهم ، فارتدوا عن الإسلام ، ورجعوا إلى الكفر الذى كان متغلغلاً في حنايا ضلوعهم وشفاف قلوبهم .

ونحو الآية قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » .

(ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) أى ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغام ليقولن هؤلاء المنافقون : إنا كنا معكم إخواناً في الدين ننصركم على أعدائكم ، وهم كاذبون فيما يدعون .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ

اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِرْ  
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » .

ثم توعدهم وذكر أنه عليم بما في صدورهم ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم فقال :  
( أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ ) أى أوليس الله أعلم بما في قلوب  
المنافقين وما تكنه صدورهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان ، فكيف  
يخادعون من لا يخفى عليه خافية ولا يستتر عنه سر ؟ .

ثم ذكر أن هذه الفتنة إنما هي ابتلاء واختبار من الله لىستبين صادق الإيمان من  
المنافق الذى لا يتجاوز الإيمان طرف لسانه ولا يعدوه إلى قلبه فقال :

( وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ) أى وليختبرن الله عباده بالسراء  
والضراء ، ليميز صادق الإيمان من المنافق ، من يطيع الله فى كل حال فيصبر على  
الآلواء إذا مسته ، ويعدها اختبارا له ، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوض الأمر فيها  
إلى ربه ، ومن يعصيه إذا حزبه الأمر ، واشتد به الخطب ، ولا يجد الصبر إلى  
قلبه سبيلا .

ونحو الآية قوله : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ  
وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقوله : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى  
يَمَيِّزَ الْخَلِيفَةَ مِنَ الْطَيِّبِ » .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ  
وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلِيَحْمِلَنَّ  
أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

## شرح المفردات

المراد بالحمل هنا : تبعه الذنوب ، والأثقال واحدها ثَقُلَ : وهو الحمل الذى يثود حامله ، والمراد به الذنب والإثم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف قسر الكفار للمؤمنين على الكفر وإيأاهم بالأذى والوعيد - أردف ذلك بذكر دعوتهم إياه بالرفق واللين حينما آخر بنحو قولهم لهم : لا عليكم بذلك من بأس ، إننا نحتمل تبعات ذنوبكم ، ثم ردّ مقالتهم ببيان كذبهم ، فإن أحدا لا يحمل وزر أحد يوم القيامة ، ثم ذكر أن المضلين يتحملون تبعات ضلالهم وإضلالهم ، ويكون لهم العذاب على كلا الجرمين .

روى عن مجاهد : أن الآية نزلت في كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم إثم فعلينا .

## الإيضاح

( وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ) أى وقال الكافرون من قريش لمن آمن منهم واتبعوا الهدى : ارجعوا إلى ديننا الذى كنتم عليه واسلكوا طريقنا ، وإن كانت عليكم آثام فعلينا تبعتها وهى فى رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى .

فردّ الله عليهم كذبهم بقوله :

( ومما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ) أى إنهم لا يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، فإن أحدا لا يحمل وزر أحد كما قال تعالى : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَهِلِيًّا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » وقال « وَلَا يَسْأَلُ جَهِيمٌ جَهِيمًا . يَبْصُرُونَهُمْ » .

ثم أكد ما سبق وقرره بقوله :

(إنهم لكاذبون) فيما قالوه إنهم يحملون عنهم الخطايا ، قال صاحب الكشف :  
وترى المتسمين بالإسلام من يستنّ بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم : افعل هذا وإثمه في عنقي ، وكمن مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامة وجهلهم اهـ .

وبعد أن بين عدم منفعة كلامهم لحاطبيهم ، بين ما يستتبعه ذلك القول من المضرّة لأنفسهم فقال :

(وليحملن أثقالهن وأثقالا مع أثقالهن) أى وليحملن الدعاة إلى الكفر والضلال يوم القيامة أوزار أنفسهن وأوزارا أخرى بما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما جاء في الآية الأخرى « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وفي الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » .

ثم ذكر أنهم يوم القيامة يسألون على افترائهم على ربهم فقال :

(وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أى وليسألن حينئذ سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبونه في الدنيا بوعدهم أضلّوهم بالأباطيل ، وقولهم لهم : ( اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ) .

### قصص نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) .

## الإيضاح

بعد أن ذكر افتتان المؤمنين بأذى الكفار ، وأرشد إلى أن من قبلهم من الأمم قد فتنوا ، أعقبه بتفصيل من فتنوا من الأنبياء : كنوح وإبراهيم وهود ولوط وشعيب تسلياً له صلى الله عليه وسلم ، فقد ابتلوا بما أصابهم من المكارة ، وصبروا عليها ، فليكن ذلك قدوة للمؤمنين .

وقد بدأ بذكر أبى الأنبياء وهو نوح عليه السلام فذكر أنه مكث في قومه ألف سنة يدعوهم إلى الله ليل نهار سرا وجهراً ، وما زادهم ذلك إلا فراراً من الحق وإعراضاً عنه ، وتكذيباً له ، وما آمن معه إلا قليل منهم ، فأرسل الله عليهم طوفان الماء ، فأهلكهم وهم مستمرون في الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح من الآيات ، ولم يراعوا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة ، فأنجى الله نوحاً ومن معه ممن ركب في السفينة من أتباعه ، وكانت تلك السفينة عبرة وموعظة أمداً طويلاً مدة بقائها على جبل الجودي ، ينظر إليها الناس ، وترشدهم إلى نعمته على خلقه بالنجاة من الطوفان ، كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْمِيَهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ » وقد تقدم تفصيل هذا في سورة هود .

وجاء النظم هكذا : إلاخسين عاماً ، ولم يقل : تسعمائة سنة وخسين ، لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني فقد يطلق على ما يقرب منه إلى أن ذكر الألف أخم وأوصل إلى الغرض ، وحىء بالمميز أولاً بالسنة ، ثم بالعام دفعاً للتكرار ، ولأن العرب تعبر عن الخصب بالعام ، وعن الجذب بالسنة ، ونوح لما استراح بقى في زمن حسن .

## العبرة من هذا القصص

لا يحزنك أيها الرسول ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى ، فإنى وإن أملت لهم وأطلت إملأهم ، فإن مصيرهم إلى البوار ، ومصيرك ومصير

أصحابك إلى الملوك والنصر ، كفعلنا بقوم نوح : إذ أغرقناهم بالطوفان ، وأنجينا نوحا وأتباعه من راكبي السفينة وجعلناها عبرة للعالمين .

وفي ذلك إيماء إلى أن نوحا قد لبث هذا الأمد الطويل يدعو قومه ، ولم يؤمن إلا القليل ، فصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر ، قللة مدة لبثك ، وكثرة عدد أمتك .

### قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ كَاثِمِينَ تَعْمَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٦) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) .

### الإيضاح

( وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ) أى واذكر لقومك قصص إبراهيم حين كمل عقله وقدر على النظر والاستدلال ، وترقى من مرتبة الكمال إلى مرتبة إرشاد الخلق ، وتصدى للدعوة إلى طريق الحق ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى السر والعلن ، واتقاء سخطه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

ثم بين لهم فائدة ذلك فقال :

( ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ) أى فذلك الذى أمركم به خير لكم مما أنتم فيه .



إن كان لديكم ذرة من الإدراك والعلم ، تميزون بها الخير من الشر ، وتعلمون ما ينفعكم في مستأنف حياتكم الدنيوية والأخروية .

ثم أرشدهم إلى فضل ما يدعوم إليهم ، وفساد ما هم عليه بقوله :

( إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ) أى ماتعبدون من دون الله إلا تماثيل هى مصنوعة بأيديكم ، وتكذبون حين تسمونها آلهة ، وتدعون أنها تشفع لكم عند ربكم .

ثم زاد فى النعى عليهم والتهكم بهم ، وبيان أن ذلك لا يجديهم نفعا فقال :  
( إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ) أى إن أوثانكم التى تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم شيئا من الرزق الذى لا قوام لكم بدونه ، فكيف تعبدونها ؟  
ثم ذكر لهم من ينبغى أن يعبد فقال :

( فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ) أى فالتمسوا الرزق عند الله لا عند أوثانكم تدركوها ما تطلبون ، واعبدوه وحده ، واشكروا له نعمه عليكم مستجلبين بذلك المزيد من فضله .

وبعد أن ذكر أنه هو الرزاق فى الدنيا والنعم على عباده ، بين أن المرجع إليه فى الآخرة ؛ فهو الذى يطلب رضاه ، والتقرب إليه ، والزلفى عنده ، فقال :  
( إليه ترجعون ) أى واستعدوا للقاءه تعالى بالعبادة والشكر له ، فإنكم إليه ترجعون ؛ فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره ، وأنتم عباده وخلقه ؛ وفى نعمه تتقلبون ، ومن رزقه تأكلون .

ولما فرغ من إرشادهم إلى الدين الحق ؛ حذّرهم من تركه ، وهدّدهم بما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل فقال :

( وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ) أى وإن تصدقونى فقد فرتم بسعادة الدارين ، وإن تكذبونى فيما أخبرتكم به فلا تضرونى بتكذيبكم ، فقد كذب أمم

قبلكم رسلكم : كقوم إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، فجري الأمر على ما سنه الله في الخلق من نجاة المصدقين للرسول ، وهلاك العاصين لهم .

(وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى وما ضر ذلك الرسل شيئا ، بل هم قد ضلوا أنفسهم ، فما على الرسول إلا التبليغ الذى لا يبقى معه شك ، وما عليه أن يصدقهم قومه ، وقد خرجت من عبدة التبليغ ، ولا على بعد ذلك أصدقتم ، أم كذبتهم ؟ .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْسِبُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) .

### شرح المفردات

النشأة : الخلق والإيجاد ، تقلبون : أى تردون بعد موتكم ، بمعجزين : أى جاعلين الله عاجزا ، من ولي : أى قريب ، ولا نصير : أى معين .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدةانية ثم الرسالة بقوله : (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور ، وقد قلنا فيما سلف : إن هذه الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها من بعض في الذكر الإلهي ، فأينما تجدد أصلين منها تجدد الثالث .

## الإيضاح

(أولم يروا كيف يبدى الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) أرشد إبراهيم خليل الرحمن قومه إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة ، وتصرفهم فى الحياة إلى حين ثم موتهم بعد ذلك ، والذى بدأ هذا قادر على أن يعيده بل هو أهون عليه كما قال فى آية أخرى : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

وخلاصة هذا : أنتم قد علمتم ذلك فكيف تنكرون الإعادة وهى أهون عليه ؟ وبعد أن ساق هذا الدليل للمشاهد فى الأنفس ، أرشد إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة فقال :

( قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ) أى سيروا فى الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من السكواكب النيرة . ثوابتها وسياراتها ، والأرض وما فيها من جبال ومهاد ، وبرارى وقفار ، وأشجار وثمار ، وأنهار وبحار ، فكل ذلك شاهد على حدوثها فى أنفسها وعلى وجود صانعها الذى يقول للشىء كن فيكون .

أوليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى ويوجده مرة ثانية وهو القادر على كل شىء ؟ .

وشبيهه بالآية قوله فى الآية الأخرى : « سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فى الآفاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ نَحْنُ يَتَّبِعِينَ لَهُمْ أَنَّهُ الْخَلْقُ » .

ولما أقام الدليل على الإعادة رتب عليها ما سيكون بعدها فقال :

( يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ) أى يعذب من يشاء منكم ومن غيركم

في الدنيا والآخرة بعدله في حكمه على حسب سننه في خلقه ، ويرحم من يشاء بفضله ورحمته ، فهو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ، لامعقب لحكمه ؛ ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

( وإليه تقلبون ) أى وإليه تردون بعد موتكم ؛ والمراد أنه إن تأخر ذلك عنكم فلا تظنوا أنه قد فات ؛ فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم ؛ وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم .

( وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ) أى إنه تعالى لا يعجزه أحد من أهل سمواته ولا أرضه ؛ بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء فقير إليه ، فلو صعد إلى السماكين ، وهبط إلى موضع السموك في الماء ماخرج من قبضته وما استطاع الهرب منه .

ولما بين أنه مقدور عليهم جميعا لا يفلتون منه ، ذكر أنه لا يستطيع أحد نصرهم فقال :

( وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ) أى وما كان لكم أيها الناس ولى بلى أموركم ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضى أو سماوى ، ولا نصير يدفع عذاب الله عنكم إن قدر لكم .

ولما قرر التوحيد والبعث هدد من خالفهما وتوعده فقال :

( والذين كفروا بآيات الله ولقاءه أولئك يؤسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ) أى والذين كفروا بالدلائل التى نصبها سبحانه فى الكون دالة على توحيده ، والدلائل التى أنزلها على رسله دالة على ذلك ، وجحدوا لقاءه والورود إليه يوم تقوم الساعة ، أولئك لا أمل لهم فى رحمته ، لأنهم لم يخافوا عقابه ولم يرجوا ثوابه ، ولهم عذاب مؤلم موجه فى الدنيا والآخرة .

ونحو الآية قوله : « إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ  
مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّنْ  
دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ  
بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَأُولَئِكَ هُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ  
نَّاصِرِينَ (٢٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية وإرسال الرسل والحشر والجزاء؛  
أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن ألزمهم الحجة ،  
ولم يجدوا للدفاع سبيلا ، حينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب  
على أمره ، فقالوا لقومهم : ابنوا له بناينا فألقوه فى الجحيم ، فأنجاه الله من كيدهم ،  
وجعلها عليه بردا وسلاما ، فعاد إلى قومهم بعد أن أخرج من النار ، وقال : إن  
يمسككم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل وبرهان ، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم ،  
فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة ، ولكنكم يوم القيامة  
تحتاجون حين يزول عى القلوب ، وتستبين الأمور للبيب الأريب ، ويكفر بعضكم  
بعضا ، فيقول العابد : ما هذا معبودى ، ويقول العبود : ما هؤلاء بعبدتى ، ويلعن  
بعضكم بعضا ؛ فيقول هذا لذلك : أنت الذى أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ،  
ويقول ذاك لهذا : أنت الذى أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادته ، ويود كل منكم أن  
يبعد عن صاحبه ، وأنى لها ذلك ، وهما مجتمعان فى النار ؟ وما لهما ناصر يخلصهما منها  
كما خلاصنى ربى من النار التى ألقيتونى فيها .

## الإيضاح

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار) أى فلم يكن جوابهم إذ قال لهم : اعبدوا الله واتقوه . إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو أحرقوه بالنار ، فأضرموا النار وألقوه فيها ، فأنجاه الله منها ، ولم يسأطها عليه ، بل جعلها بردا وسلاما .

ثم ذكر مافى هذا من العبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى إنجائنا لإبراهيم من النار ، وقد ألقى فيها وهى تستعر وتصيرها بردا وسلاما عليه - لأدلة وحججا لقوم يؤمنون بالله إذا عاينوا ورأوا مثل هذه الحجة .

ثم ذكر ما قاله إبراهيم لهم بعد إنجائه من النار :

(وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى وقال لهم مؤنبا وموئجا على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان : إنما اجتمعتم على عبادتها فى الدنيا للصدقة والألفة التى بين بعضكم وبعض ، فأنتم تتحابون على عبادتها ، وتتوادون على خدمتها ، كما يتفق الناس على مذهب ، فيكون ذلك سبب ألفتهم ومودتهم ، لالقيام الدليل عندكم على صحة عبادتها .

وقصارى ذلك : إن مودة بعضكم بعضا هى التى دعتمكم إلى عبادتها ، إذ قد رأيتم بعض من تودون عبدوها ، فعبدتموها موافقة لهم لمودتكم إياهم ، كما يرى الإنسان من يودهم يفعل شيئا ، فيفعله مودة له .

ثم ذكر أن حالهم فى الآخرة ستكون على نقیض هذا فقال :

(ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وماواكم النار وما لكم من ناصرين) أى ثم تنعكس الحال يوم القيامة ، فتتقلب الصداقة والمودة بغضا

وشأننا وتتجحدون ما كان بينكم ، ويلعن بعضكم بعضا ، فيلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع كما قال : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » ثم مرجعكم إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله .

فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)  
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

### شرح المفردات

لوط : هو ابن أخى إبراهيم على ما قاله النسابون - مهاجر إلى ربى : أى إلى الجهة التى أمرنى بالمهجرة إليها ، وإسحاق هو ابنه الأكبر ، ويعقوب : حفيده وابن إسحاق ، وأجر الدنيا : الرزق الواسع الحنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والصالح لغة : هو الباقي على ما ينبغي ، يقال : طعام بعد صالح أى هو باق على حال حسنة .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لا يفقه قدرها إلا من كان ذكى الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التى أودعها الله فى الكون - أردف هذا ببيان أنه لم يصدق بما رأى إلا لوط عليه السلام ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان فى قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يئس من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام فراراً بدينه وقصداً إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدد نعمه العاجلة عليه فى الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ؛ وآتاه الذكر الحسن إلى يوم

القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب في عداد الكملة في الصلاح والتقوى .

## الإيضاح

( فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ) أى فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به ، وقال إبراهيم : إني جاعل بلاد الشام دار هجرتي ؛ إذ أمرني ربي بالتوجه إليها ، ويقال : إن مهجره كان من كوثى من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ في الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاءه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لا فائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقي عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت ختنك ومعه امرأته ، قال : أى حال رأيتهما ؟ قالت : رأيتهم وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ( التى تدب في الأرض ولا تسرع ) وهو يسوقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صحبهم ما الله ، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » .

ثم ذكر العلة في الهجرة فقال :

( إنه هو العزيز الحكيم ) أى إن ربي هو العزيز الذى لا يذل من نصره ، بل يمنعه ممن أراد به سوء ، الحكيم فى تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرّفهم فيه .

ثم ذكر سبحانه مامن به عليه من النعم فى الدنيا والآخرة كفاء إخلاصه  
فقال :



(١) — (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) أى ورزقناه من لدنا إسحاق ولداً ويعقوب من بعده حفيداً .

ونحو الآية قوله: « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » وقوله: « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » وفى الصحيحين: « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم » .

(٢) — (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فلم يوجد نبي بعده إلا وهو من سلالة ، بجميع أنبياء بنى إسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم .

(٣) — (وآتيناه أجره فى الدنيا) فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ، فبدل وحدته بكثرة الذرية ، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لا مال له ولا جاه وهما غاية الازدة فى الدنيا ، فكثرت ماله ، وعظم جاهه ، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء ، وصار معروفاً بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر ، حتى قال قائلهم: « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ » وهذا لا يقال إلا فى المجهول بين الناس؛ إلى أنه تعالى اتخذ خليلاً ، وجعله للناس إماماً .

(٤) (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى وإنه فى الآخرة فى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العالمين .

وقصارى أمره — إنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين ، وآتاه الحسنى فى الحياتين .

## قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ  
أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَتَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُ السَّبِيلِ وَتَأْتُونَ  
فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ  
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

## شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة ، السبيل : الطريق ،  
وكانوا يتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال .

## المعنى الجملى

بعد أن قص علينا سبحانه قصص إبراهيم وما لاقاه من قومه من العتو والجبروت ،  
ثم نصره له نصراً مؤزراً - أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصراً له وسبقه إلى  
الدعوة إلى الله ، وقد أفتن قومه في فعله لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن  
الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب جاءوا ضيوفاً لإبراهيم عليه السلام .

## الإيضاح

( ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين )  
أى واذكر قصص لوط حين أرسلناه إلى أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاغرهم  
وانقطع إليهم فصاروا قومه ، فأنكر عليهم سوء صنيعهم وقبيح أفعالهم التي اختصوا  
بها ولم يسبقهم إليها أحد من قبلهم ، لفظاعتها ، ونفرة الطباع السليمة منها .  
ثم فصل هذه الفاحشة وكرر الإنكار عليها فقال :

(١) (أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ) إتيان الشهوة وتستمتعون بهم الاستمتاع بالنساء .  
 (٢) (وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ) أى وتقفون فى الطرقات تتعرضون للمارة تقتلونهم وتأخذون أموالهم .

(٣) (وَتَأْتُونَ فى نادىكم المذكور) أى وتفعلون من الأفعال والأقوال فى أنديكم ومجتمعاتكم ما لا يليق ويحجل منه أرباب الفطر السليمة ، والعقول الراجحة الحصيفة .  
 أخرج أحمد والترمذى والطبرانى والبيهقى عن أم هانى بنت أبى طالب قالت :  
 «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (وَتَأْتُونَ فى نادىكم المنكر) فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون (يرمون بالحصى) أبناء السبيل ، ويسخرون منهم» وفى رواية عن ابن عباس «هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقة ومضع العلك (اللبان) والسواك بين الناس وحل الإزار والسباب والفحش فى المزاح» .  
 ثم ذكر جوابهم عن نصحه لهم فقال :

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين)  
 أى فما كان جوابهم إذ نهام عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التى حرمها عليهم إلا قولهم : ائتنا بعذاب الله الذى تعدنا به إن كنت صادقاً فيما تقول ، ومنجزاً ما تعد ، وكان قد أوعدهم بالعذاب على ذلك .

وهذا الجواب صدر منهم فى أولى مواعظه ، فلما ألحف عليهم فى الإنكار والنهى قالوا «أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» كما جاء فى سورة الأعراف وفى هذا إيماء إلى شديد كفرهم وعظيم عنادهم .

ولما يئس من هدى قومه واتباعهم نصحه طلب من الله نصره فقال :  
 (قال رب انصرنى على القوم المفسدين) أى قال رب انصرنى على هؤلاء الذين ابتدعوا الفواحش وجعلوها سنة فيمن بعدهم وأصروا عليها وجعلوها عيداً لهم تهكاً وسخرية ، فأُنزل عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ  
الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ  
فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ  
رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَحْفَظْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا  
مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى  
أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا  
مِنْهَا آيَةً يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ (٣٥)

### شرح المفردات

القرية : هي سدوم ، الغابرين : الباقين ، وهو لفظ مشترك في الماضي وفي الباقى ؛  
يقال فيما غير من الزمان : أى فيما مضى ، ويقال الفعل ماض ، وغابر : أى باقى ،  
سِئَ بِهِمْ : أى جاءته المساءة والغم بسببهم بحجة أن يقصدهم قومه بسوء ، ضاق بِهِمْ  
ذَرْعًا : أى عجز عن تدبير شؤونهم ، يقال طال ذرعه وذراعه على الشيء إذا كان  
قادراً عليه ، ومثله ربح ذرعه ، وضده ضاق ذرعه ، لأن طویل الذراع يتال  
ملا يئاله قصيره ، والرجز : العذاب الذى يقلق المتعذب أى يزججه من قولهم : ارتجز فلان  
وارتجس : أى اضطرب .

### المعنى الجملى

لما استنصر لوط عليه السلام بربه بقوله : ( رب انصرنى على القوم المفسدين )  
استجاب دعاءه وبعث انصرته ملائكة ، وأمرهم بإهلاك قومه ، وأرسلهم من قبل بالبشرى  
لإبراهيم بخاءوه وبشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادي  
أهلها فى الشر وإصرارهم على الكفر والمعاصى ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال إن

فى القرية لوطا فقالوا إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم نزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجتروا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين وآية بينة لقوم يعقلون .

### الإيضاح

( ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ) أى ولما جاءت رسل الله مبشرة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب - قالوا لإبراهيم إنا مهلكو قرية سدوم قرية قوم لوط .

ثم ذكروا سبب ذلك فقالوا :

( إن أهلها كانوا ظالمين ) لأنفسهم بما دبرهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى ، وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم . ولما قالت له الملائكة ذلك :

( قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها ) أى قال إبراهيم إشتاقا على لوط ليعلم حاله : إن فى القرية لوطا وهو ليس من الظالمين لأنفسهم ، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له ، فقال الرسل نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين ، وبأن لوطا ليس منهم .

ثم زادوا ما سلف إيضا وطمأنوه بذكر ما يسره من نجاته بقولهم .

( لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ) أى لننجينه وأتباعه من الهلاك الذى هو نازل بأهل القرية إلا امرأته فإنها من الباقين فى العذاب لما ألتمها إياهم على الكفر والبغى وفعل الخبائث .

ثم ذكر ما كان من أمر لوط حين مجئ الرسل ضيوفا لديه فقال :

( ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئى بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تحزن ولا تحزن ) أى ولما أن جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه

خاف عليهم من قوم . وحصلت له مساءة وغم بسببهم مخافة أن يقصدهم أحد بسوء وهو عاجز عن مدافعة قومه وتدبير الخيلة لحمايتهم ودفع الأذى عنهم ، وحين رأوه على هذه الحال من القلق والاضطراب قالوا له : هَوِّنْ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تَخَفْ عَلَيْنَا وَلَا تَحْزَنْ بِمَا نَفْعُهُ بِقَوْمِكَ ، فإنهم قد بلغوا في الخبث مبلغاً لا مطمع في رجوعهم عنه مهما نصحت وأخلفت في الإرشاد .

ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه وما يشيرون به إلى أنهم ملائكة فقالوا : ( إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ) أى إنا منجوك من العذاب الذى سينزل بقومك ، ومنجوا أتباعك معك ، فإن يصيبكم ما يصيبهم منه إلا امرأتك فإنها من المالكين ، لظاھرتها إياهم والميل إلى شد أزهم والدفاع عنهم ، فقد كانت تدلهم على ضيوفه فيقصدونهم بالسوء ، فصارت شريكة فى الجُرم . وبعد أن بشروه بالنجاة قالوا له :

( إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ) أى منزلون عليها عذاباً من لدنا يرتجزون له ( يضطربون ) وتنخلع له قلوبهم ، لأن الفسق قد تغلغل فى أفئدتهم وصار هجيراً وديناً لهم .

وأشهر الآراء أن زلزلة خسفت بهم الأرض وابتلعتهم فى باطنها وصار مكان قريتهم بحيرة ملحة ( البحر الميت ) .

وبعدئذ بين أن ما حل بهم عبء لمن اعتبر وأدكر فقال :

( ولقد تركنا منها آية يبينه لقوم يعقلون ) أى ولقد أبقينا مما فعلنا بهم عبء بينة ، وعظة زاجرة ، لقوم يستعملون عقولهم فى الاستبصار ، وجعلناها مثلاً للآخرين .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » وتقدم أن قلنا آنفاً عند ذكر هذه القصة ما أثبتته الكشف الحديث

فى هذا الموضع .

## قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ  
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)

### شرح المفردات

مدین : أبو القبيلة ، وارجوا اليوم الآخر : أى توقعوه وتوقعوا ما يحدث فيه من  
الأحوال ، ولا تعتوا : أى ولا تفسدوا ، والرجفة : الزلزلة الشديدة ، جاثمين : أى مقيمين ؛  
من جثم الطائر : إذا قعد واصلق بالأرض ، والمراد أنهم ماتوا .

### الإيضاح

( وإلى مدین أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعتوه  
فى الأرض مفسدين ) أى وأرسلنا إلى مدین شعيباً فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحدا  
وأخلصوا له العبادة ، وارجوا بعبادتكم إياه جزاء اليوم الآخر وثوابه ، ولا تفسدوا  
فى الأرض ولا تبغوا على أهلها فتتقصوا المكیال والمیزان وتقطعوا الطريق على الناس  
بل تروبا إلى ربكم وأنیبوا إليه .

ثم ذكر ما أعقب هذا النصح فقال :

( فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ) أى فكذبوه فيما  
جاءهم به من عند ربهم فأهلكهم بزلزلة عظيمة ارتجفت لها القلوب واضطربت  
الأفئدة ، فأصبحوا فى دارهم ميتين لا حراك لهم .  
وقد تقدمت هذه القصة مبسطة فى السور : الأعراف . هود . الشعراء .

### قصص هود وصالح عليهما السلام

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ  
أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

### الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا عادا قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى  
قريبة من بلاد اليمن . وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحِجْرَ قريبا من وادى القرى  
مع ما كانوا عليه من العتو والتكبر ، وكانت العرب تعرف مساكنهما معرفة تامة  
وتقر عليها كثيرا وترى ما حل بها .

وما سبب ما جرى عليها إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم من عبادة غير الله ،  
وصدّهم عن الطريق السوى الذى يوصلهم إلى النجاة ، وقد كانوا متمكنين من النظر  
والاستبصار ، فلم يكن لهم عذر فى الغفلة وعدم التدبر فى العواقب .

### قصص موسى عليه السلام

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَمْتَتَكِبْرُوا  
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)

### شرح المنعرجات

يقال سبق فلان طائفه : أى فاتته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى  
أى إدراك ، فتداركوا نحو الدمار والهلاك .

### الإيضاح

أى وأهلكنا أيضا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة ، وفرعون  
ملك الملوك فى عصره ومصره ووزيره هامان ، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل



على صدق رسالته، فاستكبروا فى الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به، وما كانوا فائقين الله وهار بين من عقابه، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر.

### عاقبة الأمم المكذبة لرسالتها

فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

### شرح المفردات

الحاصب : الريح العاصفة فيها حصاء : أى حجارة صغيرة .

### الايضاح

( فكلّا أخذنا بذنبه ) أى أهلك الله الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب :

(١) ( فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ) كقوم عاد إذ قالوا من أشد منا قوة ؟

فجاءتهم ريح صرصر عاتية باردة شديدة الهبوب تحمل الحصاء فألقها عليهم .

(٢) ( ومنهم من أخذته الصيحة ) كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة ولم

يؤمنوا ، بل استبدوا فى طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحا ومن آمن معه ،

فجاءتهم صيحة أخذت منهم الأصوات والحركات .

(٣) ( ومنهم من خسفنا به الأرض ) كقارون الذى طغى وبغى ، وعصى

الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحا، وتاه بنفسه عجبا، فخسف الله به وبداره الأرض.

(٤) ( ومنهم من أغرقنا ) كقوم نوح أغرقوا بالطوفان ، وفرعون وهامان

وجنودهما أغرقوا فى صبيحة يوم واحد .

ثم بين أن هذه العقوبة جزاء ما اجتروا من الآثام والذنوب ولم تكن ظلما

لهم فقال :

(وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى ولم يكن الله ليهلكهم بغير جرم اجتزموه ، لأن ذلك ليس من سننه تعالى ، وهو لا يوافق منهج الحكمة ، فلا يصدر عن الحكيم ، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم وجحودهم نعمه عليهم وتقلبهم فى آلائه ، وعبادتهم غيره ومعصيتهم من أنعم عليهم .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) أَتُلُو مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

### المعنى الجملى

بعد أن أسلف - سبحانه - أنه أهلك من أشرك به بعاجل العقاب ، وسيعذبه بشديد العذاب ، ولا ينفعه فى الدارين معبوده ، ولا يجديه ركوعه وسجوده - أردف هذا بتمثيل حال من اتخذ معبودا دون الله بحال العنكبوت ، وقد اتخذت لها بيتا لا يريحها إذا هى أوت ، ولا يجيرها من حر أو برد إذا هى ثوت ، ثم زاد الإنكار تأكيدا فذكر أن ما يدعونه ليس بشيء فكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتمل بعبادة من ليس بشيء ، ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس ، وأنه لا يدرك مغزاها إلا ذوقو الألباب ، الذين يفهمون خبىء الكلام وظاهريه ، وسره

وعلايته ، ثم ذكر أنه لم يخلق السموات والأرض إلا لحكمة يعلمها المؤمنون ،  
ويدركها المستبصرون وهى ما أرشد إليها بقوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

وبعد أن أمر سبحانه عباده بما تقدم بيانه وأظهر الحق ببرهانه ، ولم يهتد بذلك  
المشركون ، سلى رسوله بأمره بتلاوة كتابه وعبادته تعالى طرفى النهار وزلفا من الليل ،  
وإرشاده إلى أن الله عليم بما يصنع عباده وسيجازيهم كفاء ما يعملون من خير أو شر .

### الإيضاح

( مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ) أى مثل  
الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها لدى الشدائد ؛  
فى قبيح احتيالهم وسوء اختيارهم لأنفسهم ، كمثل العنكبوت فى ضعفها وقلة حيلتها ،  
اتخذت لنفسها بيتا يكنها من حر وبرد ودفع أذى ، فلم يغن عنها شيئا حين حاجتها  
إليه ، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل أمر الله بهم وحل بهم سخطه  
أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا ولم يدفعوا عنهم ما أحل بهم بعبادتهم إياهم .  
وخلاصة ذلك - إن بيت العنكبوت لا يكن ولا يمنع أذى الحر والبرد كما هو  
شأنها فيما ترون ، فكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق ، وجر المنافع ،  
ودفع المضار ، وما عبده الكافرون لم يقدم شيئا من ذلك ، فكيف بهم يصرون  
على عبادتهم .

ثم ذكر جهالهم وسوء تقديرهم لما صنعوا فقال :

( وإن أوهن البيوت لبيوت العنكبوت لو كانوا يعلمون ) أى لو كان هؤلاء الذين  
اتخذوا من دون الله أولياء - يعلمون أن أولياءهم لا يجدونهم فتىلا ولا قِطْميرا ؛ كما  
لا يجدى بيت العنكبوت عنها شيئا - ما فعلوا ذلك ؛ لكنهم قد بلغ بهم الجهل وسوء

التقدير حدًّا لا يستطيعون معه العلم بعواقب ما يفعلون ؛ ومن ثم فهم يحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى .

وإجمال ما تقدم : مثل المشرك الذى يعبد الوثن إذا قيس بالموحد الذى يعبد الله ؛ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بأجرٍ وجص أو نخته من صخر ؛ وكما أن أوهن البيوت إذا استقرت بها بيتا بيتا بيت العنكبوت ، فأضعف الأديان إذا سبرتها ديننا فديننا عبادة الأوثان .

ثم زاد الإنكار توكيدا وتثيتا فقال :

(إنَّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) أى إن الله يعلم حال ما تعبدون من دونه من الأوثان والأصنام والجن والإنس ، وأنها لا تنفعكم ولا تضركم إن أراد الله بكم سوءا ، وإن مثلها فى قلة غنائها لكم ، كمثل بيت العنكبوت فى قلة غنائها لها . وقد يكون المعنى : ليس الذين يدعون من دونه شيئا ، إذ هو لحقارته وقلة الاعتداد به لا يسمى شيئا .

(وهو العزيز الحكيم) أى والله هو العزيز فى انتقامه ممن كفر به وأشرك فى عبادته معه غيره ، فاتقوا - أيها المشركون به - عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم ، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم فى هذه السورة ، فإنه إن نزل بكم لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه شيئا ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ؛ فهلك من استوجب عمله الهلاك ، ومؤخر من رأى فيه الرجاء للصالح والاستقامة .

ثم بين فائدة ضرب الأمثال فقال :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أى وهذا المثل ونظائره من الأمثال التى اشتمل عليها الكتاب العزيز ؛ فضربها للناس تقريبا لما بُعد من أفهامهم ، وإيضاحا لما أشكل عليهم أمره ، واستعصى عليهم حكمه ، وما يفهم مغزاها ومعرفة تأثيرها ، واستباحتها لكثير من القوائد إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى عواقب الأمور .

روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال «العالم من عقل  
عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه» .

ولما قدم سبحانه أن لا معجز له سبحانه ، ولا ناصر لمن خذله ، أقام الدليل على ذلك بقوله :

( خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ) أى خلق السموات  
والأرض لحكم وفوائد دينية ودنيوية ولم يخلقها عبثا ولها ، فبخلقها أمكن إيجاد كل  
تمكن تعلق به العلم ، واقتضت الإرادة إيجادها ، وأمكن معرفة الخالق الذى أوجدها  
وعبادته كفأ نعمه ، كما جاء فى الحديث القدسى حكاية عن الله عز وجل : « كنت  
كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فى عرفونى » .

ولا يفهم هذه الأسرار إلا من آمنوا بالله وصدقوا رسوله ، لأنهم هم الذين يستدلون  
بالاتار على مؤثرها كما أثر عن بعض العرب : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام  
تدل على المسير » .

ثم خاطب رسوله مسليا له بقوله :

( اتل ما أوحى إليك من الكتاب ) أى أدم تلاوة الكتاب تقربا إلى الله  
بتلاوته ، وتذكرا لما فى تضاعيفه من الأسرار والفوائد ، وتذكيرا للناس ، وحلا لهم  
على العمل بما فيه من أحكام وآداب ومكارم أخلاق .

( وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) أى وأد الصلاة على  
الوجه القيم مريدا بذلك وجه الله ؛ والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له ؛ فإنها إن  
كانت كذلك نهتكم عن الفحشاء والمنكر ؛ لما تحويه من صنوف العبادات من  
التكبير والتسبيح ، والوقوف بين يدى الله عز وجل ، والركوع والسجود بغاية  
الخضوع والتعظيم ، نفى أقوالها وأفعالها ما يوصى إلى ترك الفحشاء والمنكر ، فكأنها  
تقول : كيف تعصى ربا هو أهل لما أتيت به ؟ وكيف يليق بك أن تفعل ذلك

وتعصيه ؟ وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال وأفعال تدل على عظمة المعبود  
وكبريائه ، وإخباتك له ، وإنايتك إليه ، وخضوعك لجبروته وقهره ؛ إذا عصيته  
وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله .

(ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم  
إياه بطاعته .

(والله يعلم ما تصنعون) من خير أو شر وهو يحازيكم كفاء أعمالكم إن خيرا  
فخير وإن شرا فشر كما جرت بذلك سنته فى خلقه ، وهو الحكيم الخبير .  
ولا يخفى ما فى ذلك من وعد ووعد ؛ وحث على مراقبة الله فى السر والعلانية  
« إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

تم تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم بمدينة حوان من أرباض القاهرة  
حاضرة الديار المصرية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى من سنة أربع  
وسنتين وثلاثمائة وألف هجرية . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على  
سيدنا محمد وآله .

## فهرست

## أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٣	ما أجاب به قوم لوط لوطا بعد سماع نصائحه .
٥	أمره عليه السلام بأن يحمد الله على نعمه .
٧	توبيخ المشركين على عبادتهم للأصنام والأوثان .
١٠	طلب الدليل على صحة عبادة الأصنام .
١١	لا يعلم الغيب إلا الله .
١٢	قالت عائشة: من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون في غد فقد أعظم الفرية على الله .
١٤	مقالة المشركين بأن البعث ما هو إلا من أساطير الأولين .
١٦	كل ما يحصل في الوجود فهو في اللوح المحفوظ .
١٧	إعجاز القرآن من وجوه .
١٨	صفة القرآن .
١٩	تنبؤ النبي صلى الله عليه وسلم من إيمان قومه .
٢٠	إنك لا تستطيع أن تهدي العمى عن ضلالتهم .
٢١	ذكر مقدمات يوم القيامة .
٢٢	حال المكذبين عند مجيء الساعة .
٢٣	ذكر الدليل على التوحيد والحشر .
٢٦	أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: إنما أمرت أعبد الله وحده .
٢٨	أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتزجيب قومه وترهيبهم .

الصفحة	المبحث
٣٢	كان من سياسة فرعون إزكاء العداوة والبغضاء بين أفراد الشعب (فرق تسد).
٣٤	ما خص به الشعب الإسرائيلي من الكرامة .
٣٥	للدول هرم كما تهرم الأفراد .
٣٦	ما أوحى به إلى أم موسى .
٣٩	قتل فرعون وجنوده لأولاد بني إسرائيل خطأ عظيم .
٤٠	مأقالاته أم موسى لأخته .
٤٣	ما أنعم الله به على موسى حين كبره .
٤٤	ما حدث من موسى حين دخول مصر .
٤٨	نصيحة المؤمن الذي يكتف إيمانه لموسى .
٤٩	ما حصل لموسى حين وصوله إلى مدين من الأحداث .
٥٠	مأقالاته ابنة الكاهن لموسى بعد مشورة أبيها .
٥٢	مأقاله الكاهن لموسى .
٥٣	عودة موسى إلى مصر بعد إتمام الأجل .
٥٤	خبر النار التي رآها موسى من جانب الطور .
٥٥	ما أراد الله لموسى من الآيات .
٥٦	طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هرون وزيرا وإجابة طلبه .
٥٨	ادعاء فرعون أن موسى ساحر .
٥٩	تهكم فرعون بأله موسى وطلبه من وزيره بناء صرح ليطلع عليه .
٦٠	ما نال فرعون من عقاب في الدنيا قبل الآخرة .
٦٣	ما أوتي موسى من الآيات البينات .
٦٤	الحاجة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
٦٥	ذكر قصص موسى في القرآن على هذا الوجه دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم .



الصفحة	المبحث
٦٦	إرسال الأنبياء قطع للحجة على الناس .
٦٨	طلب المشركين من الرسول أن يأتي بمعجزات كمعجزات موسى وقد كف العائدون من قيل بها .
٦٩	الحكمة في إنزال القرآن منجماً .
٧٠	من آمن من أهل الكتاب يؤتى أجره مرتين .
٧١	في الحديث: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين .
٧٢	أوصاف المؤمنين من أهل الكتاب .
٧٤	« إنك لا تهدي من أحببت » نزلت في أبي طالب .
٧٥	احتجاج المشركين على عدم إيمانهم .
٧٦	عدم الإيمان موجب لهلاك القرى .
٧٧	لا يهلك الله قرية إلا إذا ظلم أهلها .
٧٨	زينة الدنيا ظل زائل، وما عند الله خير وأبقى .
٨٠	يسأل المشركون يوم القيامة عن الأوثان الذين عبدوهم من دون الله .
٨١	جواب الرؤساء الدعاة إلى الضلال .
٨٣	يسأل المشركون عن تكذيبهم للأنبياء .
٨٤	حال من تاب من الكفار يوم القيامة .
٨٥	اصطفاء بعض المخلوقات بالرسالة من حق الله ، لامن حق البشر .
٨٦	الاستخارة الشرعية .
٨٧	بعض صفات كماله سبحانه .
٨٨	تفصيل ما يجب أن يحمد عاياه من النعم .
٨٩	المخالفة بين الليل والنهار فضل من الله .
٩٠	اتخاذ الشركاء لله لم يكن عن دليل . بل كان عن محض الهوى .
٩٢	قصص نارون فيه بيان عاقبة أهل البغي والخير .

الصفحة	المبحث
٩٣	أسباب بغيه .
٩٤	النصائح التي أسداها قومه له .
٩٥	مقالة قارون لقومه ردًا عليهم .
٩٧	مظاهر بغى قارون بتباهيه بماله وخدمته وحشمة وأعوانه .
٩٨	حين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين .
٩٩	ما آل إليه بطره من وبال ونكال .
١٠٠	العبرة من ذكر قصص قارون للناس .
١٠٢	الدار الآخرة وما فيها من ثواب أعدّه الله للمؤمنين المتواضعين الذين لا يترفعون على الناس .
١٠٤	قصص محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع قومه وإيقاظهم لهم .
١٠٥	أمره صلى الله عليه وسلم أن يصعد بالدعوة ويبلغ الرسالة .
١٠٧	خلاصة ما حوته سورة القصص من أغراض .
١٠٩	وجه الاتصال بين القصص والمنسكبات .
١١٠	لا يتبين الإيمان الحق إلا بالامتحان .
١١١	الحكمة في بدء السور بالحروف المقطعة .
١١٢	أتباع الأنبياء السابقين فتنوا كما فتن محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه .
١١٣	إن الخلق لم يخلقوا سدى .
١١٤	من يعمل للآخرة لا يضيع عمله سدى .
١١٦	البرّ بالوالدين والإحسان إليهما .
١١٧	لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
١١٨	الناس في الدين أقسام ثلاثة .
١١٩	من الناس من يقول آمنا بالله فإذا أودى في الله ارتد عن دينه .

الصفحة	المبحث
١٢١	كان الكافرون يقولون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا وانحمل خطايانا .
١٢٢	قصص نوح عليه السلام .
١٢٣	العبرة من قصص نوح عليه السلام .
١٢٤	قصص إبراهيم عليه السلام .
١٢٦	ما على الرسول إلا البلاغ المبين .
١٢٦	إقامة الدليل على البعث والذئور
١٢٧	تهديد من ينكر البعث .
١٢٩	بعد أن حاج إبراهيم قومه استعملوا معه القوة وقالوا: اقتلوه أو حرقوه .
١٣٠	يوم القيامة يكفر بعض المشركين ببعض .
١٣١	حين يؤس إبراهيم من إيمان قومه هاجر إلى الشام .
١٣٢	منة الله على إبراهيم في الدنيا والآخرة .
١٣٤	قصص لوط عليه السلام مع قومه .
١٣٦	مجيء الملائكة لإبراهيم بالبشرى .
١٣٧	ما كان من لوط حين مجيء الرسل .
١٣٩	قصص شعيب عليه السلام مع قومه .
١٤٠	قصص هود وصالح عليهما السلام .
١٤٠	قصص موسى عليه السلام مع فرعون .
١٤١	عاقبة الأمم المكذبة لرسولها .
١٤٢	تمثيل حال من عبد غير الله بحال العنكبوت اتخذت بيتا .
١٤٤	فوائد ضرب الأمثال .
١٤٥	الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .